أسس المنهج النبوي في البناء الفكري

دراسة موضوعية في ضوء السنة النبوية

إعداد

د/ شهاب الدين محمد أبو زهو

الأستاذ المشارك بقسم السُّنة وعلومها

كلية الشريعة وأصول الدين - جامعة الملك خالد بأبها

الأستاذ المساعد بقسم الحديث النبوي وعلومه

كلية أصول الدين بطنطا - جامعة الأزهر

ملخص (عربي وإنجليزي) بحث بعنوان:
"أسس المنهج النبوي في البناء الفكري، دراسة موضوعية في ضوء السُّنة النبوية".

إن السُّنة النبوية هي مصدر التشريع الإسلامي مع القرآن الكريم، ولا غنى عنها لمعرفة دين الله ومقاصده في كتابه الكريم، وقد جاء الإسلام – قرآنًا وسُنَّةً – بالمحافظة على الضروريات الخمس، وهي: حفظ الدِّين، والنفس، والعقل، والمال، والنسب؛ لأنه لا بد منها في قيام مصالح الدِّين والدنيا، ولا يستقيم نظام إلا بوجودها وتحصيلها، ثم إن السنة النبوية قد عُنيت بالفكر عناية فائقة، فَشرعتْ من الأحكام ما يجلب المصالح له، ويدفع المفاسد عنه، وقد حفلت السُّنة المطهَّرَة بأحاديث كثيرةً تظهر اهتمامًا بالغًا برعاية الفكر المسلم وبنائه على أسس قويمة، خاصة عند وقوع الأزمات العَقدية والفكرية ومواجهة الأفكار المضلِّلة، وقد وضعت السنة النبوية منهجًا متميزًا فريدًا في البناء الفكري للمسلم بوسائل غاية في الكمال، تشمل الجوانب الإيمانية والوجدانية والاجتماعية والدعوية والفكرية والعلمية وغيرها.

وتتلخص أسباب اختيار هذا البحث في عدة أسباب، منها: انتشار ظاهرة الانحراف الفكري حتى تَحَوَّلَ ذلك إلى مشكلة تمثل خطرًا داهمًا على المجتمع. وبراعة المنهج النبوي في بناء الفكر المسلم، حيث إن المنهج النبوي يمثل أقوم المناهج في بناء الفكر، إذْ إنه مِن هَدْي خير العباد – صلى الله عليه وسلم – الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يُوحَى. ودِقَّة السُّنة النبوية في رعاية الفكر وبنائه على أسس قويمة، حتى يعيش المجتمع في أمن وأمان.

كما تكمن أهمية هذا البحث في عدة أمور، منها: أنه بحث حديثيٌّ لموضوع متعلق بأخطر قضايا المجتمع المسلم خاصة والإنساني عامة. وإبراز ما تضمنته وتميزت به السُّنة النبوية في مجال بناء الفكر كَحَقٍّ مِن حقوق الإنسان. والإسهام في صَدِّ الهجمة المواجهة ضد الإسلام ووَصْفِه بأوصاف هو بريء منها، مثل وصفه بأنه: "دين التطرف والإرهاب، وأنه دين دموي يقوم على إزهاق الأرواح وقتل الأبرياء!".

ويهدف هذا البحث إلى تحقيق عدة أمور، منها: التعريف بالمنهج النبوي في البناء الفكري الإسلامي. والوقوف على ما ورد في السُّنة المطهرة حول أسس بناء الفكر ورعايته. وإبراز الدور العظيم للسُّنة النبوية في إقامته المجتمع على أسس من السِّلم العام الذي يشمل المسلمين وغيرهم ممن يعيشون في الدولة المسلمة.

Abstract

The Prophetic Sunnah's foundations in the intellectual improvement.
A thematic study from the perspective of The Prophetic Sunnah.

The Holy Quran & The Prophetic Sunnah are the sources of legislation in Islam.
Learning The Prophetic Sunnah is necessary to be able to understand the aims of Isl am and the aims of the Holy Quran.
Our pure religion urges people to take good care of five necessities:
Religion, soul, brain, money and pedigree, because protecting these five items will help people in achieving all their needs in this lifetime and in the hear after, and it w ill aslo help in the management of any system in the world.

The Prophetic Sunnah has revealed specific legislations to protect the ideology of ea ch Muslim individual from any possible harm.
Although, The Prophetic Sunnah incorporates many "Hadiths" that take very good c are of the intellectual improvement of the Muslim individual, building it on proper f oundations to be able to face the misconceptions of the islamic faith.
Therefore, The Prophetic Sunnah did put a distinct approach for improving the intel lectual knowledge of a Muslim person, incorporating all aspects: conscience, spread ing the islamic faith, social, intellectual, scientific and many other aspects as well.

The ultimate reasons of this research are:
The spread of the phenomenon of intellectual deviation, that represents a huge dang er on the society, so this research aims to show the great approach of the Prophetic S unnah in this field, building the Muslim intellectual knowledge on a correct basis to help the society to live in peace.

The reason of the ingenuity of the Prophetic Sunnah in this field, is that this Sunnah is the legislature of the Prophet Mohammad PBUH who doesn't talk unless by the or der of All Mighty God.
Furthermore, this research is important because it is related to very serious Muslim and non- Muslim communities issues.

The Prophetic Sunnah has emphasized the improvement of the intellectual knowled ge as a proper right to every human being,
aslo this research aims to confront all the offensive assaults towards Islam, which ar e for example:
(accusing Islam that it's a religion of terrorism, and that it stimulates killing innocen t people.)
Accordingly, this research aims to defining the methodology of the Prophetic Sunna h in the improvement of the intellectual knowledge for the Muslim, and in building t he society on peaceful basis that embraces the Muslim and the non-
Muslims who live in the Muslim countries.

Keys words:
Foundations - methodology - Prophetic - Improvement -Intellectual - Study - Thematic.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فإن السُّنة النبوية هي مصدر التشريع الإسلامي مع القرآن الكريم، ولا غنى عنها لمعرفة دين الله ومقاصده في كتابه الكريم، وقد جاء الإسلام -قرآنًا وسُنَّةً- بالمحافظة على الضروريات الخمس، وهي: حفظ الدِّين، والنفس، والعقل، والمال، والنسب؛ لأنه لا بد منها في قيام مصالح الدِّين والدنيا، ولا يستقيم نظام إلا بوجودها وتحصيلها، ثم إن السنة النبوية قد عُنيت بالفكر عناية فائقة، فَشرعتْ من الأحكام ما يجلب المصالح له، ويدفع المفاسد عنه، وقد حفلت السُّنة المطهَّرَة بأحاديث كثيرةً تظهر اهتمامًا بالغًا برعاية الفكر المسلم وبنائه على أسس قويمة، خاصة عند وقوع الأزمات العَقدية والفكرية ومواجهة الأفكار المضلِّلة، وقد وضعت السنة النبوية منهجًا متميزًا فريدًا في البناء الفكري للمسلم بوسائل غاية في الكمال، تشمل الجوانب الإيمانية والوجدانية والاجتماعية والدعوية والفكرية والعلمية وغيرها.

ومن هنا جاء هذا البحث -بتوفيق الله تعالى وفضله- ليكشف عن جوانب بناء السنة النبوية للفكر ورعايته؛ ليكون منهاج السنة النبوية في هذا الباب مثالًا يحتذى، وخطةً يسير الرعاة على هديها، وسميت هذا البحث: **"أسس المنهج النبوي في البناء الفكري، دراسة موضوعية في ضوء السُّنة النبوية"**.

ويُقصد بالمنهج النبوي في البناء الفكري: الطرائق النبوية المتبعة في بناء فكر المسلم، وفق منهج متكامل يتسم بالشمول والتوازن، ويتوافق مع العقل والفطرة والواقع، وصولًا إلى التصور الأمثل حول القضايا التي تشغل المسلم بتعقل وإنصاف ومرونة وانفتاح، ودرْءِ المفاسد عنه، وحمايتِه من الأهواء الْمُرْدية والضلالات المهلكة، وتحريف الغالِين وانتحال الْمُبطِلين، ومعالجة مظاهر انحرافه.

وتتلخص أسباب اختيار هذا البحث في عدة أسباب، منها: انتشار ظاهرة الانحراف الفكري حتى تَحَوَّلَ ذلك إلى مشكلة تمثل خطرًا داهمًا على المجتمع. وبراعة المنهج النبوي في بناء الفكر المسلم، حيث إن المنهج النبوي يمثل أقوم المناهج في بناء الفكر، إذْ إنه

مِن هَدْي خير العباد – ﷺ– الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يُوحَى. ودِقَّة السُّنة النبوية في رعاية الفكر وبنائه على أسس قويمة، حتى يعيش المجتمع في أمن وأمان.

كما تكمن أهمية هذا البحث في عدة أمور، منها: أنه بحث حديثيٌّ لموضوع متعلق بأخطر قضايا المجتمع المسلم خاصة والإنساني عامة. وبيان مكانة الفكر في السُّنة النبوية، وأنه مصون بسياج منيع يحميه من الانحراف. وأنه موضوع متعلق بحماية بمقصدين عظيمين من مقاصد الشريعة الإسلامية وهما: حفظ الدين، وحفظ العقل. وأنه يستقرئ الأحاديث المتعلقة بالموضوع ويسلط الضوء على المراد منها، مع ربطه بالواقع وتوظيفه في تقديم الحلول المناسبة. وإبراز ما تضمنته وتميزت به السُّنة النبوية في مجال بناء الفكر كَحَقٍّ مِن حقوق الإنسان. والإسهام في صَدِّ الهجمة المواجهة ضد الإسلام ووَصْفِه بأوصاف هو بريء منها، مثل وصفه بأنه: "دين التطرف والإرهاب، وأنه دين دموي يقوم على إزهاق الأرواح وقتل الأبرياء!".

ولا يخفى على الباحثين في مجال بناء الفكر أنه يحتاج بصفة مستمرة إلى الدراسات المتخصصة العميقة التي تواكب حاجة المجتمع وتلبي مطالبه في تأسيس أفراده بفئاتهم جميعًا – خاصة الشباب – على الفكر المستيقيم من غير إفراط ولا تفريط ولا انحراف ولاشذوذ ولا اعوجاج، وهذه الدراسات المتخصصة تستلزم البحث عن الطرق القويمة لبناء الفكر الذي يخدم الأُمَّة والمجتمعات التي تنشد الاستقرار وتسعى نحو التقدم والنهوض واللحاق بركاب الحضارة العالمية، حتى تتسع دائرة عطاءاتها، وتغطي أوسع مساحة كيفًا وكمًّا، بل وتمتد عبر الأزمنة والأجيال اللاحقة، ومن فقد جاء هذا البحث ليحاول الإجابة عن عدة أسئلة منها: ما هي معالم الجانب البنائي للفكر القويم في السُّنة النبوية؟ وما هي القواعد النبوية التي ينطلق منها المسلم في تحصين فكره من الانحراف؟ وكيف كان النبي ﷺ يبني الفكر المسلم؟

ويهدف هذا البحث إلى تحقيق عدة أمور، منها: التعريف بالمنهج النبوي في البناء الفكري الإسلامي. والوقوف على ما ورد في السُّنة المطهرة حول أسس بناء الفكر ورعايته. وإبراز الدور العظيم للسُّنة النبوية في إقامته المجتمع على أسس من السِّلم العام الذي يشمل المسلمين وغيرهم ممن يعيشون في الدولة المسلمة.

ويتكون هذا البحث من: **مقدمة:** وفيها بيان أهمية البحث، ومشكلته، وأهدافه، ومنهجه، وخطته.

وخمسة مطالب على النحو الآتي: المطلب الأول: التأسيس العَقَدِي للمسلم. **المطلب الثاني:** الاعتصام بالكتاب والسُّنة. **المطلب الثالث:** طلب العلم الشرعي المؤصل على يد العلماء الربانيين. **المطلب الرابع:** بناء الفكر المسلم على التوازن والوسطية. **المطلب الخامس:** لزوم جماعة المسلمين والانتماء إليها وعدم الشذوذ عنها.

ثم **الخاتمة:** وفيها أهم النتائج المستفادة من البحث وتوصياته.

ويتمثل منهج البحث فيما يأتي: اتباع المنهج التأصيلي الاستقرائي التحليلي في بحث هذا الموضوع. فأما المنهج التأصيلي: فيتجلى في التعريف بأهم المصطلحات الشرعية والمفردات اللغوية الواردة في البحث. وأما المنهج الاستقرائي: فيتمثل في الاختيار والانتقاء مما صح من الأحاديث النبوية المتعلقة بالموضوع وتصنيفها. وأما المنهج التحليلي، فيتمثل في تدبر الأحاديث النبوية واستخلاص ما اشتملت عليه من الحقائق وبيان هداياتها، إلى جانب المنهجية المتبعة في البحوث، مع مراعاة أن مساحة البحث محدودة حسب ما هو متبع في مثل هذا النوع من الأبحاث، وبالتالي سوف يختار البحث فقط نماذج من الأحاديث النبوية دون استقصاء الوارد منها في موضوعه. واستنباط ما تضمنته الأحاديث من مسائل مع تقريره بأقوال شُرَّاح الحديث النبوي -قديمًا وحديثًا- المتعلقة بهذا الموضوع. وتوثيق النصوص بالطريقة العلمية المعهودة. وتخريج الأحاديث تخريجًا علميًّا، مكتفيًا بالصحيحين أو أحدهما، مع الإشارة إلى الزيادات المهمة عليهما إن وُجدت، فإن لم يكن الحديث فيهما: خرجته تخريجًا متوسطًا من بعض المصادر حسبما يناسب طبيعة البحث ومساحته بما يكفي لإظهاره وبيان درجته. مع تتبع المصادر القديمة والحديثة للنظر فيما كتب في هذا الموضوع حسب الإمكان.

هذا، وما كان من توفيق فمِنَ الله وحده، وما كان مِن خطأ أو تقصير فمِنِّي ومن الشيطان، وأسأل الله العفو والعافية والمعافاة في الدنيا والآخرة، إنه بكل جميل كفيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

المطلب الأول: التأسيس العَقَدِي للمسلم

إن العقيدة الإسلامية القائمة على الإيمان بالله تُعد مصدرًا أساسيًّا لفكر المسلم فهو يأخذ منها قِيَمَه وقواعدَه وأصولَه وخصائصَه ليُحقق أهدافَه في الحياة، والإيمانُ بالله يَدفع الإنسان إلى الخوف منه، وينعكس على سلوكِه وتَصَرُّفِه، فهو تارةً يَمنعه مِن مزاولة الأنشطة المحرمة، وتارةً يدفعه إلى مزاولة النشاط المشروع وهو في حدِّ ذاته عبادة ومن وسائل التقرب إلى الله تعالى، ولذلك جاء هذا المطلب لبيان أهمية الإيمان بالله وأثره على على البناء الفكري للفرد المسلم، فنقول وبالله التوفيق:

لقد **رَسَمَتْ عقيدة التوحيد للمسلم منهجًا متكاملًا للتهذيب الرُّوحي** غَيَّرَتْ بموجبه النظرةَ إلى الكون، فالاعتقاد الأساسي للمسلم هو أنَّ الكون وما فيه من مخلوقات بما في ذلك البشر، خَلَقَه اللهُ وحده، فالفكر في ضوء ذلك أمانة بقَلْبِ الإنسان وعَقْلِه عليه أن يحسن استخدامها، **فعقيدةُ التوحيد تدفع بالإنسان إلى العيش في ضمن القيم الأخلاقية الإسلامية** التي تمثل ركيزة أساسية في تحقيق التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع وتحقيق مقاصد الشريعة، وعند ذلك لا يستطيع الفرد المسلم الانحراف عن المنهج الذي رسمه له الشارع الحكيم، لأن **الجانب الإيماني عند المسلم يولد لديه رقابة ذاتية تمنعه من الانحراف في الفكر والسلوك**، ويعطي له دافعًا نفسيًّا يحاول فيه الفرد المسلم التقرب إلى الله تعالى في كل أحواله طمعًا في الحصول على الأجر والثواب في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهو الأمر الذي يدفعه إلى التزام أحكام الشريعة الإسلامية وأوامرها في الفكر والسلوك، كما أن **الجانب الإيماني هو الذي يصوغ عقلانية الفرد المسلم ورَشَادَتَه**، فيظهر أثرُ الإيمان ويتجلى وضوحُه في فكر المسلم وسلوكه، ويقضي عليه بالالتزام بالفكر والقيم والمبادئ الأخلاقية التي تصنع الفرد المسلم، وهذا ما لم تستطع الفلسفات والمذاهب الوضعية تحقيقَه. **ويرسم الإيمان بالله تعالى للفرد المسلم طريقًا يسلكه متمثلًا في السلوك الوسطي في الفكر والسلوك**، فهو عندما يقارن بين الأمور المتنوعة يحصل عنده اعتدال يُمَكِّنه من تحقيق التوازن والتوسُّطٌ في بناء الرؤية والتصور وإصدار الأحكام.

وقد كانت مهمة المصطفى –صلى الله عليه وسلم– الأولى هي ترسيخ العقيدة، وتأصيلها في النفوس؛ فهي المهمة الأولى، وهي القضية الكبرى فالعقيدة هي القاعدة الأساسية لإقامة هذا الدين، وهي الأساس، وهي المدخل للإسلام، وهي محوره والروح التي تسري فيه، والقضية الكبرى لهذا الدين الذي يعمل على بناء الأخلاق التي لا تقوم إلا على

أساس من العقيدة التي تضع الموازين، وتحدد القيم، وتقرر السلطة التي تعتمد عليها هذه الموازين والقيم، وبدون هذه العقيدة تظل القيم والأخلاق كلها متأرجحة بلا ضابط؛ يتخبط بنو الإنسان في الضلالات حين يفقدونها، ويتسكعون في الظلمات، ويغرقون في ألوان الشرك، وأوضار الجاهلية، كما قال الله تعالى: { وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [سورة الروم: ٣١-٣٢]. **إن إسلام الوجه لله، وإفراده بالعبادة يرتقي بالمؤمن في خلقه وتفكيره،** وينقذه من زيغ القلوب، وانحراف الأهواء، وظلمات الجهل، وأوهام الخرافة، وينقذه من المحتالين والدجالين وأحبار السوء ورهبانها ممن يشترون بآيات الله وأيمانهم ثمنا قليلا، إن التوحيد الخالص يحفظ الإنسان من الانفلات بلا قيد أو حاجز(١).

إن مفتاح شخصية الإنسان هو الإيمان، وبه يتحرك المسلم نحو الرشد الفكري والعمل المستقيم، ولذلك كانت حاجة الأمة المسلمة إلى التربية الإيمانية الصحيحة ماسة ومُلِحَّة خاصة في عصرنا الحديث لتزرع في القلوب المعاني الربانية السامية والقيم النبيلة الأصيلة، وحينئذ: يتجدد الإيمان كما ينبغي على أساس متين من الإسلام الذي جاء به القرآن الكريم، وبيَّنته السنة الغراء، في ضوء فَهْمِ الصحابة الكرام وتابعيهم بإحسان من أئمة الإسلام، فيكون فِكْرُ المسلم خالصًا من شوائب الملل والنحل والفسفات والمذاهب الفاسدة، سالِمًا من كل عيب، بريئًا من كل شائبة، متوازنًا بلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو لا تقصير، مستقيمًا على صراط الله تعالى، آمنًا من كل مَيْل أو انحراف أو اعوجاج.

ومن معالم الاهتمام النبوي الكريم بالتأسيس العَقَدِيِّ للمسلم ما نورده من الأحاديث التالية:

١- لَمَّا بعث رسول الله -ﷺ- معاذًا إلى اليمن قال له: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ**»(٢)، وفي رواية للبخاري: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ**

(١) انظر: مجلة البحوث الإسلامية، بحث بعنوان العقيدة هي الأساس، أ. د. محمد بن أحمد الصالح (العدد ٥٣/ ٣٥١) بتصرف واختصار.

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الإيمان ، باب الْأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه (١/٣٧ رقم: ١٩) بهذا اللفظ.

فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ»(١).

فقد أَمَر النبي – ﷺ– معاذًا أن يبدأهم بالدعوة إلى التوحيد والسلامة من الشرك مع الإيمانِ بالرسول – ﷺ– والشهادةِ له بالرسالة؛ فعُلِم بذلك أن الدعوة إلى إصلاح العقيدة وسلامتها مُقَدَّمَةٌ على بقية الأحكام؛ لأن العقيدة هي الأساس الذي تُبنى عليه الأحكام، ويؤسَّس عليها الفكر، كما قال الله عز وجل: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [سورة الزمر:٦٥].

٢– وعن سفيان بن عبد الله الثَّقَفي – رضي الله عنه –، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُول الله، قُلْ لي في الإسْلامِ قَولاً لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَداً غَيْرَكَ. قَالَ: «**قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ استَقِمْ**»(٢).

فهذا الرجل طلب من النبي – ﷺ– كلاماً جامعًا للخير نافعًا، موصلًا صاحبه إلى الفلاح. فأمره النبي – ﷺ– بالإيمان بالله الذي يشمل ما يجب اعتقادُه: من عقائد الإيمان، وأصوله، وما يتبع ذلك: من أعمال القلوب، والانقياد والاستسلام لله، باطناً وظاهراً، ثم الدوام على ذلك، والاستقامة عليه إلى الممات. وهو نظير قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } [سورة فصلت:٣٠]، فَرَتَّب على الإيمان والاستقامة: السلامةَ من جميع الشرور، وحصولَ الجنة وجميع المحاب. وقد دَلَّت نصوص الكتاب والسُّنة الكثيرة على أن الإيمان يشمل ما في القلوب من العقائد الصحيحة، وأعمال القلوب: من الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، وإرادة الخير، وكراهة الشر. ومن أعمال الجوارح، ولا يتم ذلك إلا بالثبات عليه(٣).

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب التوحيد ، باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى توحيد الله (٩/١١٤ رقم: ٧٣٧٢).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الإيمان ، باب جامع أوصاف الإسلام (/٤٧ رقم: ٣٨) بمثله. وابن حبان في "صحيحه" كتاب الرقائق ، ذكر ما يجب على المرء من سؤال الباري تعالى الثبات والاستقامة على ما يقربه إليه بفضل الله علينا بذلك (٣/٢٢١ رقم: ٩٤٢) بهذا اللفظ.

(٣) انظر: بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار للشيخ عبد الرحمن السعدي، ط الرشد (ص: ٢٢).

– وقد اهتم النبي – ﷺ– بتعليم العقيدة للشباب وهم في بداية هذه المرحلة العُمُرية، وذلك لأن ما يتعلمه الشابُّ في بداية حياته يترسخ في عقله وفكره، ويتمكن من قلبه ووجدانه، ويتميز بالثبات معه حتى الممات، وهذا ما قرَّرَه التابعي الجليل علقمة بن قيس النَّخَعِيُّ (توفي بعد ٦٠هـ) حين قال: «**ما حَفظتُ وأنا شابٌّ كأني أنظر إليه في قرطاس أو ورقة**».

ومن الأحاديث التي تدل على اهتمام النبي – ﷺ– بتعليم الشباب الإيمان والعقيدة: ما رواه ابن ماجة عن جُنْدُبِ بن عبد الله، قال: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ – ﷺ– وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ(١)،**فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا**» وفي رواية: «فَإِنَّكُمُ الْيَوْمَ تَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ»(٢).

وعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال: «**لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرٍ وَأَحَدُنَا يُؤْتَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ – ﷺ–، فَيَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَآمِرَهَا وَزَاجِرَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهَا، كَمَا تَتَعَلَّمُونَ أَنْتُمُ الْيَوْمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ لَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ رِجَالًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى**

---

(١) **حَزَاوِرَةٌ:** جَمْعُ الْحَزْوَرِ – بفتح الحاء المهملة وسكون زاي معجمة وفتح واو ثم راء – ويقال له: الْحَزَوَّرُ – بتشديد الواو – هو الغلام إذا اشتد وقَوِيَ وحَزَمَ. أو هو الذي قارب البلوغ. (انظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجة ١/ ٣١، والنهاية لابن الأثير (٩٥٢/١).

(٢) أخرجه ابن ماجه في "سننه" في أبواب السنة ، باب في الإيمان (١ / ٤٢) برقم: (٦١) بهذا اللفظ. وعبد الله بن أحمد في "السُّنة" (١/ ٣٦٩) و(١/ ٣٧٩) برقم٨٢٥) بنحوه مختصرا، والطبراني في "الكبير" (٢ / ١٥٨) برقم: (١٦٥٢) بمثله موقوفا مختصرا. و(٢ / ١٦٥) برقم: (١٦٧٨) بمثله، والزيادة منه. وابن بطة في "الإبانة الكبرى" (٢/ ٨٤٨) برقم: (١١٣٦) بنحوه، وابن منده في "الإيمان" (١/ ٣٧٠) برقم: (٢٠٨)، والبيهقي في "سننه الكبير" في كتاب الصلاة ، باب البيان أنه إنما قيل يؤمهم أقرؤهم (٣ / ١٢٠) برقم: (٥٣٧٥) بنحوه، والزيادة منه. وقال العراقي في "تخريج أحاديث الإحياء" (٢١٧/١): "إسناده صحيح". وقال البوصيري في "مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه" (١/ ١٢): "هَذَا إِسْنَاد صَحِيح رِجَاله ثِقَات".

خَاتِمَتِهِ، وَلَا يَدْرِي مَا آمِرُهُ، وَلَا زَاجِرُهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهُ، وَيَنْتَثِرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ(١)»(٢).

– وقد بَيَّن النبي –صلى الله عليه وسلم– خطر شأن العقيدة، وأظهر شِدَّةَ الخوف على الناس من الانحراف، وعلى القلوب من الزيغ، حين أعلن في إحدى خُطَبه الشريفة أن الشياطين ما فتئت تترصد لبني آدم تجتالهم، وتغويهم، كما ورد في الحديث القدسي عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «**أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا: – وكان مما قال: – إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا**»(٣).

ومن خلال فهم هذا الحديث يتبين لنا أن الأمر في غاية الخطورة؛ حيث ينحرف الفكر، ويفسد التصور، ويضل العقل حين يحدث خلل في العقيدة، وقد تعددت صور هذا الانحراف قديمًا؛ فكان منها التصديق بالسحر والشعوذة، والتطير والتشاؤم، والرقى والتمائم، وما زال هذا الانحراف قائمًا في زماننا هذا، **وكان من صور الانحراف الحديثة:** ظهور طوائف من المنتسبين إلى الإسلام يزعمون الثقافة والتحضر والمعرفة، لا يرضون بحكم الله، ولا يُسَلِّمون له؛ بل تضيق صدورهم حَرَجًا، وتشمئز قلوبهم مرضًا، إذا علموا أنَّ حدًّا من حدود

(١) **الدَّقَل** – بِفَتْحَتَيْنِ –: هُوَ رَدِيءُ التَّمْرِ وَيَابِسُهُ. أَيْ يَرْمُونَ بِكَلِمَاتِهِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَتَأَمُّلٍ، كَمَا يُرْمَى الدَّقَلُ، وَهُوَ رَدِيءُ التَّمْرِ؛ فَإِنَّهُ لِرَدَاءَتِهِ لَا يُحْفَظُ، وَيُلْقَى مَنْثُورًا. (انظر: النهاية لابن الأثير ١٢٧/٢ وتحفة الأحوذي للمباركفوري ٣/ ١٧٧).

(٢) أخرجه **الطحاوي** في "شرح مشكل الآثار" باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله ﷺمن قوله الدين النصيحة (٤ / ٨٤) برقم: (١٤٥٣) (بهذا اللفظ)، **وابن منده** في "الإيمان" (١/ ٣٦٩) برقم: (٢٠٧) بنحوه مختصرا، **والحاكم** في "مستدركه" كِتَابُ الْإِيمَانِ ،كيف يتعلم القرآن (١ / ٣٥) برقم: (١٠٢) بمثله، **والبيهقي** في "سننه الكبير" كتاب الصلاة ، باب البيان أنه إنما قيل يؤمهم أقرؤهم (٣ / ١٢٠) برقم: (٥٣٧٣) بمثله. وقال **ابن مندة:** (٣٦٩/١): «هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَلَى رَسْمِ مُسْلِمٍ وَالْجَمَاعَةِ إِلَّا الْبُخَارِيَّ»، وقال **الحاكم:** «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرف له علة ولم يخرجاه»، وأَقَرَّه الذهبي.

(٣) أخرجه مسلم في "صحيحه" في كتاب الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا – بَاب الصِّفَاتِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ (٢١٩٧/٤ رقم ٢٨٦٥).

الله قد أقيم في الأرض، وهم بانحرافهم الشنيع هذا يَدَّعون -كذبًا- أنهم يحملون راية الحفاظ على حقوق الإنسان، فالإسلام عند هؤلاء المنحرفين جنايةٌ على الحقوق، والحدودُ في نظرهم قسوة وبشاعة وتخلف، وحُكْمُ الرِّدَّة تهديدٌ لحرية الفكر والإبداع، وأحكامُ الشرع كلها عودة إلى عصور الظلام والتعصب والانغلاق! وما درى هؤلاء أنَّ حقوق الإنسان وحقوق الأمم ما ضاعت إلا بهم وبأمثالهم، إنهم حين لم يعرفوا التوحيد، ولم يحققوه، أصبحوا فئةً منفصلة عن أمة الإسلام، بفكرها ومعتقدها، تُوَلِّي وجهها نحو الشرق أو الغرب، وقد تَجَلَّى ذلك في تمردهم على أصالة الأمة، وأمجادها، وتراثها.

- وقد أوضحت السُّنة المطهَّرة أن الإيمان الحق يحفظ المؤمن من الوساوس ويُكْسِبه الحصانة منها، بل إن الضيق بالوساوس والنفرة من الإحساس بها هو صريح الإيمان، ففي الحديث عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ- قال: "**يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ**"(١).

قال الحافظ ابن حجر: (وقوله: "فليستعذ بالله وليَنْتَهِ" أي: يترك التفكر في ذلك الخاطر، ويستعيذ بالله إذا لم يَزُل عنه التفكر. والحكمة في ذلك: أن العلم باستغناء الله - تعالى - عن كل ما يوسوسه الشيطان أمْرٌ ضروري لا يحتاج للاحتجاج والمناظرة، فإنْ وقَع شيء من ذلك فهو من وسوسة الشيطان، وهي غير متناهية فمهما عورض بحجة يجد مسلكًا آخر من المغالطة والاسترسال، فيضيع الوقت إن سلم من فتنته، فلا تدبير في دفعه أقوى من الالتجاء إلى الله تعالى بالاستعاذة به كما قال تعالى: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ} [سورة الأعراف:٢٠٠])(٢). وقال أيضا: (قوله: "من خلق ربك؟ فإذا بلغه، فليستعذ بالله، ولينته" أي: عن الاسترسال معه في ذلك، بل يلجأ إلى الله في دفعه، ويعلم أنه يريد إفساد دينه وعقله بهذه الوسوسة، فينبغي أن يجتهد في دفعها بالاشتغال بغيرها)(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (١٢٣/٤) برقم: (٣٢٧٦) بمثله. ومسلم في "صحيحه" كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة فِي الإيمان وما يقوله من وجدها (٨٤/١) برقم: (١٣٤)، بهذا اللفظ.

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر (٢٧٣/١٣).

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر (٣٤١/٦).

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ – ﷺ–فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: "**وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟**"، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: "**ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ**"، وفي رواية: "**تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ**"(١).

قال الإمام النووي: (قوله: "ذلك صريح الإيمان" و"محض الإيمان" معناه: استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان، فإن استعظام هذا، وشدة الخوف منه، ومن النطق به، فضلًا عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالًا محقَّقًا، وانتفت عنه الريبة والشكوك). وقال أيضًا: (وقيل: معناه أن الشيطان إنما يوسوس لمن أَيِسَ مِن إغوائه فيُنَكِّد عليه بالوسوسة؛ لعجزه عن إغوائه. وأما الكافر فإنه يأتيه مِن حيث شاء، ولا يقتصر في حقه على الوسوسة، بل يتلاعب به كيف أراد، فعلى هذا معنى الحديث: سبب الوسوسة محض الإيمان، أو الوسوسة علامة محض الإيمان، وهذا القول اختيار القاضي عياض)(٢).

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ–: "**لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ هَذَا: خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ**"(٣).

قال القرطبي: (وقوله: "قل: آمنت بالله" أمر بتذكُّرِ الإيمان الشرعي، وإشغال القلب به؛ لتمحى تلك الشبهات، وتضمحل تلك التُّرَّهات. وهذه كلها أدوية للقلوب السليمة، الصحيحة المستقيمة، التي تعرض الشبهات لها ولا تمكث فيها؛ فإذا استعملت هذه الأدوية على نحو ما أمر به، بقيت القلوب على صحتها، وانحفظ سلامتها)(٤).

وصفوة القول: أنَّ العقيدة هي الأصل والأساس، وأنَّ تحقيق التوحيد يحتاج إلى يقظة قلبية دائبة دائمة، تنفي عن النفس كلَّ خاطرة تقدح في عبودية العبد لِرَبِّه، وتدفع كلَّ خرافة شيطانية في كل حركة أو تَصَرُّف، ليكون ذلك كله خالصا لله وحده دون من سواه، فيستقيم المسلم، ويأمن على فكره وقلبه وعقله من الزيغ والانحراف والضلال.

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة فِي الإيمان وما يقوله من وجدها (٨٣/١) برقم: (١٣٢).

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم (١٥٤/٢).

(٣) أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة فِي الإيمان وما يقوله من وجدها (٨٣/١) برقم: (١٣٤).

(٤) انظر: المفهم للقرطبي (١٠٩/٢ – ١١٠)، وانظر: الأمن الفكري للويحق (ص: ١٤٤ – ١٤٧).

المطلب الثاني: الاعتصام بالكتاب والسُّنة

جاء القرآن العظيم والسُّنة المشَرَّفة بهداياتٍ كاملةٍ تامةٍ، تَفِي بحاجات جميع البشر في كل زمان ومكان؛ لأن الذي أنزلهما هو العليم بكل شيء، خالق البشرية والخبير بما يصلحها ويفسدها، وما ينفعها ويضرها، فإذا شَرَعَ أمرًا جاء في أعلى درجات الحكمة والخبرة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الملك:١٤].

وقد بَيَّن النبي – ﷺ– أن الخير كله في اتباع هدْيِ القرآن والسُّنة، فعَن جَابِرٍ – رضي الله عنه – ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ– يَخْطُبُ النَّاسَ، يَحْمَدُ اللهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: «**مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَخَيْرُ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، [وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ]**»(١). وهذا الإمام أحمد يقول مبيِّنًا هذا المعنى الذي يدل عليه الحديث السابق فقال: (أصول السُّنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رَسُول اللَّهِ – ﷺ–، والاقتداء بهم، وتَرْك البدع، وكلُّ بدعة فهي ضلالة، وتَرْك الخصومات، وتَرْك الجلوس مع أصحاب الأهواء، وتَرْك المراء والجدال والخصومات فِي الدين، والسُّنة عندنا آثار رَسُول اللَّهِ ﷺ، والسُّنة تفسر القرآن، وهي دلائل القرآن، وليس فِي السُّنة قياس، ولا تُضرب لها الأمثال، ولا تُدرك بالعقول ولا الأهواء، إنما هو الاتباع وتَرْك الهوى)(٢). وهذا الإمام مالك يُنقَل عنه قوله: "مَنِ ابْتَدَعَ فِي الْإِسْلَامِ بِدْعَةً يَرَاهَا حَسَنَةً، ومِنْ أَحْدَثَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ سَلَفُهَا؛ فَقَدْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا – ﷺ– خَانَ الرِّسَالَةَ، لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: {ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [سورة المائدة:٣]، فَمَا لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ دِينًا، فَلَا يَكُونُ الْيَوْمَ دِينًا)(٣).

وقد امتن الله تعالى على عباده المؤمنين أن جمع كلمتهم، وألَّف بين قلوبهم، وجعلهم إخوة متحابين، وأوصاهم بالاعتصام بكتابه الكريم وسُنة نبيه الأمين، وحذرهم من التفرق الذميم، وهذا يدعوهم إلى استقامة الفكر وسلامته من الانحراف والاعوجاج، فقال تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" في كتاب الجمعة – بَابُ تَخْفِيفِ الصَّلَاةِ وَالْخُطْبَةِ (٥٩٢/٢ رقم ٨٦٧) والنسائي في "سننه" في كتاب صلاة العيدين – باب كَيْفَ الْخُطْبَةُ (١٨٨/٣ رقم١٥٧٨) والزيادة له، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (١/ ٢٠٢ رقم ١٣٧) طبعة مكتبة السوادي – جدة.

(٢) انظر: أصول السنة، للإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١هـ)، دار المنار – الخرج – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ، (ص: ١٤ – ١٧).

(٣) انظر: الاعتصام للشاطبي (٦٥/١ و٤٩٤ و٥٤٧ و٥٤٩)، طبعة دار ابن عفان.

{وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [سورة آل عمران:١٠٣]، أي: (تمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم في كتابه إليكم من الألفة والاجتماع على كلمة الحق والتسليم لأمر الله... ولا تتفرقوا عن دين الله وعهده الذي عهد إليكم في كتابه من الائتلاف والاجتماع على طاعته وطاعة رسوله ﷺ والانتهاء إلى أمره... واذكروا ما أنعم الله به عليكم من الألفة والاجتماع على الإسلام حين كنتم أعداء في شرككم، يقتل بعضكم بعضًا، عصبيةً في غير طاعة الله ولا طاعة رسوله، فألف الله بالإسلام بين قلوبكم، فجعل بعضكم لبعض إخوانًا بعد إذ كنتم أعداءً تتواصلون بألفة الإسلام واجتماع كلمتكم عليه)(١).

ومن توجيهاته – ﷺ– في التمسك بالكتاب والسُّنة والاعتصام بهما طلبًا لاستقامة الفكر، والسلامة من الانحراف، والنجاة من الضلال والاعوجاج:

عن ابن عباس – رضي الله عنهما –: أَنَّ رسولَ الله – ﷺ– خَطَبَ الناسَ في حَجَةِ الوَدَاعِ فقال: "**إِنِّي قَدِ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ**".

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه –قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ– ﷺ– : "**إِنِّى قَدْ خَلَّفْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا مَا أَخَذْتُمْ بِهِمَا أَوْ عَمِلْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِى، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَىَّ الْحَوْضَ**"(٢).

---

(١) انظر: تفسير الطبري= جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للإمام محمد بن جرير أبي جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، (٥/٦٤٣ – ٦٥١) بتصرف.

(٢) **حسن**: قال ابن عبد البر: في "التمهيد" (٢٤/٣٣١) تعليقا على رواية مالك لهذا الحديث بلاغا في ("الموطأ":٢/٨٩٩ رقم ١٥٩٤): (وهذا أيضا محفوظ معروف مشهور عن النبي – ﷺ– عند أهل العلم شهرة يكاد يستغني بها عن الإسناد). قلت: ورد من حديث مجموعة من الصحابة، وهي بمفرداتها لا تخلو من ضعف بعضه شديد والآخر غير شديد، ومِنْ أَمْثَلِهَا:

أولًا: **حديث ابن عباس، أخرجه**: الحاكم في "المستدرك" (١/١٧١ رقم٣١٨)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (١٠/١١٤رقم٢٠٨٣٣) من طريق الحاكم السابقة. وفي الاعتقاد له أيضا (١/٢٣١ =

=رقم ٢٠٦). والآجري في "الشريعة" (٥/٢٢٢٠ رقم١٧٠٥). والعقيلي في الضعفاء الكبير (٣٩/٤). والمروزي في السنة (ص ٢٥ رقم ٦٨). والخطيب البغدادي في "المتفق والمفترق" (٧/٣ ترجمة رقم٨٠٨). وابن حزم في الإحكام (٦ / ٢٤٣) من طريق العقيلي السابقة، جزءًا من حديث طويل في خطبة حجة الوداع. قال الحاكم: "قد احتج البخاري بأحاديث عكرمة، واحتج مسلم بأبي أويس، وسائر رواته متفق عليهم، وهذا الحديث لخطبة النبي – ﷺ– متفق على إخراجه في الصحيح: "يا أيها الناس، إني قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم مسؤولون عني فما أنتم قائلون" وذِكْرُ الاعتصام بالسنة في هذه الخطبة غريب، ويُحتاج إليها، وقد وجدت له شاهدا من حديث أبي هريرة". وقال الذهبي في "التلخيص": "احتج البخاري بعكرمة، واحتج مسلم بأبي أويس عبد الله، وله أصل في الصحيح". قلت: **وهذا إسناد حسن**: إسْمَاعِيل بن أبي أُوَيْسٍ: صدوق أخطأ في أحاديث من حفظه، كما في "التقريب" لابن حجر ص (١٠٨) وهو وإن كان شيخ البخاري وقد خرج له انتقاء ومتابعة، فإنه حسن الحديث في المتابعات والشواهد. وأما أبوه: فهو عبد الله بن عبد الله بن أويس، وهو صدوق يهم، كما في "التقريب" لابن حجر ص (٣٠٩). فهو وإن روى له مسلم متابعة، ففيه كلام ينزله عن رتبة الصحيح، وهو حسن الحديث في المتابعات والشواهد. وهذا الحديث: ليس معدودًا فيما أخطأ فيه إسماعيل بن أبي أويس وأبوه، وليس فيه مخالفة لغيره. كما أنه يشهد له حديث زيد بن أرقم الذي أخرجه أحمد (٣٢/٦٤ رقم ١٩٣١٣) و الطبراني (٥/١٨٦ رقم ٥٠٤٠) والطحاوي واللفظ له في "شرح مشكل الآثار" (٩/٨٨ رقم ٣٤٦٣) من طريق علي بن ربيعة قال : لَقِيتُ زَيْدَ بْنَ الْأَرْقَمِ وَهُوَ دَاخِلٌ عَلَى الْمُخْتَارِ أَوْ خَارِجٌ ، فَقُلْتُ: " مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ؟ سَمِعْتَ النَّبِيَّ – ﷺ– يَقُولُ: "إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ اللهِ وَعِتْرَتِي؟" قَالَ: "نَعَمْ"، وإسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح، وتوفرت فيه شروط الصحة كلها. وعترة الرجل: أهل بيته ورهطه الأدنون. والمقصود من "أهل البيت" إنما هم العلماء الصالحون منهم والمتمسكون بالكتاب و السنة، قال الإمام أبو جعفر الطحاوي رحمه الله تعالى: "وَعِتْرَتُهُ: هُمْ أَهْلُ بَيْتِهِ الَّذِينَ عَلَى دِينِهِ، وَعَلَى التَّمَسُّكِ بِأَمْرِهِ". وذكر نحوه الشيخ علي القاري في "المرقاة" (٥/٦٠٠) ثم استظهر أن الوجه في تخصيص أهل البيت بالذكر ما أفاده بقوله: "إن أهل البيت غالبا يكونون أعرف بصاحب البيت وأحواله، فالمراد بهم أهل العلم منهم، المطلعون على سيرته، الواقفون على طريقته، العارفون بحُكمه وحِكمته. وبهذا يصلح أن يكون مقابلا لكتاب الله سبحانه كما قال: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [البقرة: ١٢٩]". ومثله قوله تعالى في خطاب أزواجه – ﷺ– في آية التطهير: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ} [الأحزاب: ٣٤]. فتبين أن المراد بـ (أهل البيت) المتمسكين منهم بسنته – ﷺ–، فتكون هي المقصود بالذات في الحديث، ولذلك جعلها أحد (الأَمْرَيْن) – في حديث ابن عباس – المقابلَ للأمر الأول وهو كتاب الله. والحاصل أن ذِكر أهل البيت في مقابل (القرآن) في حديث زيد بن أرقم كَذِكر سُنة الخلفاء الراشدين مع سُنته – ﷺ– في =

=قوله: "فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ...". قال الشيخ القاري (١/١٩٩): "فإنهم لم يعملوا إلا بسنتي، فالإضافة إليهم، إما لعملهم بها، أو لاستنباطهم واختيارهم إياها". إذا عُرِفَ ما تقدم؛ فحديث زيد بن أرقم شاهدٌ قوي لحديث ابن عباس الذي معنا. والله أعلم. (وانظر: السلسلة الصحيحة للألباني رقم ١٧٦١).

وللحديث طريق أخرى عن ابن عباس، أخرجها: الآجري في "الشريعة" (٥/ ٢٢١٨ -٢٢٢٠ رقم١٧٠٤) جزءا من حديث طويل في خطبة حجة الوداع. قلت: وسنده ضعيف؛ فيه عبد الله بن شبيب الربعي الأخباري: وَاهٍ؛ كما قال الذهبي في "المغني في الضعفاء" (١/٣٤٢). **وله طريق أخرى من حديث أبي هريرة، أخرجها:** الحاكم في "المستدرك"(١/١٧٢ رقم ٣١٩)، والدارقطني في "سننه" (٤/٢٤٥ رقم ١٤٩)، والعقيلي في "الضعفاء" (٤/٢٤٠ رقم ٩١٤)، وابن حزم في "الإحكام" (٦/١٤٣)، وابن شاهين في "الترغيب في فضائل الأعمال" (٢/١٠٩ رقم ٥٢٨) وفي "شرح مذاهب أهل السنة لابن شاهين (ص ٤٦ رقم ٤٣)، وأبو بكر الشافعي في "الفوائد الشهير بالغيلانيات" (٢/١٠٩ رقم ٥٩٧)، والخطيب البغدادي في "الجامع لأخلاق الراوي" (١/٩٥ رقم ٨٩)، وفي "الفقيه والمتفقه" (١/٣٠٤ رقم ٢٧٠) وفي (١/٣٠٥ رقم٢٧١)، واللالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" (١/١٠٤ رقم٨١)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (١٠/١١٤ رقم ٢٠٨٣٤)، كلهم من طريق صالح بن موسى الطلحي، عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي صالح، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ–: (إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض). واللفظ للحاكم والباقون قريبا منه، وفي رواية العقيلي وابن شاهين والخطيب في الموضعين الأولين واللالكائي والبيهقي: (لن تضلوا بعدهما أبدا ما أخذتم بهما وعملتم بهما). قلت: وهذا إسناد ضعيف؛ مداره على صالح بن موسى الطلحي، وهو متروك كما قال الحافظ في "التقريب" (ص٢٧٤). **وله طريق ثالثة من حديث عمرو بن عوف، أخرجها:** ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (٢/٥٥ رقم ٧٢٤ ط مؤسسة الريان) بلفظ: (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه – ﷺ–). و (٢ / ٢٢٢ رقم٩٥١)، وسنده ضعيف جدا، فيه: ١–كثير بن عبد الله: ضعيف، (التقريب ص٤٦٠). بل "متروك"، كما قال الذهبي في "المغني في الضعفاء" (٢/٥٣١). ٢– أبوه: عبد الله بن عمرو بن عوف: مقبول. (التقريب ص ٣١٦). بل "مجهول" لم يرو عنه سوى ابنه، وذكره ابن حبان في الثقات. ٣– إسحاق بن إبراهيم الحُنَيْنِيّ: ضعيف. (التقريب ص ٩٩). **وله طريق رابعة من حديث حديث أنس بن مالك، أخرجها:** أبو الشيخ الأصبهاني في "طبقات المحدثين بأصبهان" (٤/١٨٧ رقم١١٤٩) بلفظ: «لقد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنة نبيه». قلت: وسنده ضعيف؛ فيه يزيد بن أبان الرَّقَاشي زاهد ضعيف، كما في "تقريب التهذيب" (ص ٥٩٩). وتلميذه: هشام بن سلمان، قال عنه ابن عدي في "الكامل" (٧/١٠٨): (له من الحديث عن يزيد الرقاشي عن أنس ولا اعلم =

ومِنْ تمام نُصْح النبي – ﷺ– لأمته، وحرصه عليهم ومحبته الخير لهم؛ أوصاهم بسنّته، وحَثَّهم عليها، وأَمَرَهم بالأخذ بها، كما في حديث الْعِرْبَاض بْن سَارِيَةَ، قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ– مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: «**قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا**(١)، **لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**(٢)، **وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا**»(٣)، وفي رواية: "**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى**

=يروى عن غير يزيد الرقاشي... وأحاديثه عن يزيد غير محفوظة)، وقال ابن حبان في "المجروحين" (٨٩/٣): (منكر الحديث جدا، ينفرد عن الثقات بالمناكير الكثيرة وعن الضعفاء بالأشياء المقلوبة على قلة روايته لا يجوز الاحتجاج به فيما وافق فكيف إذا انفرد!). **وله طريق خامسة من حديث أبي سعيد الخدري، أخرجها**: الخطيب البغدادي في "الفقيه والمتفقه" (١ / ٣٠٦ رقم٢٧٢) ولفظه: خرج رسول الله – ﷺ– علينا في مرضه الذي توفي فيه، ونحن في صلاة الغداة، فذهب أبو بكر ليتأخر، فأشار إليه مكانك، وصلى مع الناس ، فلما انصرف ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا أيها الناس، إني قد تركت فيكم الثقلين : كتاب الله وسنتي فاستنطقوا القرآن بسنتي، ولا تعسفوه، فإنه لن تعمى أبصاركم، ولن تزل أقدامكم، ولن تقصر أيديكم ما أخذتم بهما ». قلت: وهذا إسناد ضعيف؛ فيه: شعيب بن إبراهيم، قال ابن عدي (الكامل في ضعفاء الرجال: ٤/٤): "له أحاديث وأخبار، وهو ليس بذلك المعروف، ومقدار ما يروي من الحديث والأخبار ليست بالكثيرة، وفيه بعض النكرة". وأما سيف بن عمر، فهو ضعيف في الحديث كما قال الحافظ في "التقريب" (ص ٢٦٢)، بل "متروك باتفاق" كما قال الذهبي في "المغني في الضعفاء": (٢٩٢/١)؛ والصباح بن محمد: ضعيف أيضا، كما في "التقريب" (ص ٢٧٤).

(١) **تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا**: أي على ملّة واضحة الإشراق، كوضوح إشراقَ الشمس، لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ، أي متساوية، لا تختلف بأي حال من الأحوال في الاهتداء بها، والوصول إلى الغرض المطلوب، وهو الظفر بسعادة الدارين. (انظر: مشارق الأنوار الوهاجة في شرح سنن ابن ماجة، للشيخ محمد بن علي بن آدم الإتيوبي، دار المغني، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م).

(٢) **النَّوَاجِذُ مِنَ الأَسْنان**: الضَّواحِك، وَهِيَ الَّتِي تَبْدو عِنْدَ الضَّحك. وَالْأَكْثَرُ الأَشْهَر أَنَّهَا أَقْصى الأَسْنان. أَيْ تمسَّكوا بِهَا، كَمَا يَتَمَسَّك العاضُّ بِجَمِيعِ أضراسِه. (انظر النهاية لابن الأثير ٢٠/٥).

(٣) أخرجه أبو داود في "سننه" كتاب السنة، باب في لزوم السنة (٣٢٩/٤) برقم: (٤٦٠٧) بنحوه مطولا، والترمذي في "جامعه" أبواب العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في =

اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ"(١).

يقول الأستاذ محمد أسد (ليوبولد فايس، المفكر النمساوي الذي أسلم): "لقد كانت السُّنة مفتاحًا لفهم النهضة الإسلامية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، فلماذا لا تكون مفتاحًا لفهم انحلالنا الحاضر؟! إن العمل بسُنة رسول الله – ﷺ– هو عمل على حفظ كيان الإسلام وعلى تقدمه، وإن ترك السُّنة هو انحلال الإسلام. لقد كانت السُّنة الهيكل الحديدي الذي قام عليه صرح الإسلام، وإنك إذا أزلت هيكل بناءٍ مَّا، أفيدهشك أن يتقوض ذلك البناء كأنه بيت من ورق؟!"(٢).

فالكتاب والسُّنة اشتملا على أصول الدين، وعلى براهين هذه الأصول، يقول ابن تيمية: "إنّ القرآن بُيِّن فيه أصول الدين في المسائل والدلائل في غاية الاحكام ونهاية التمام"(٣). ويقول صاحب "أبجد العلوم": "واعلم أنّ أصول الدين اثنان لا ثالث لهما:

=الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٤/٤٠٨) برقم: (٢٦٧٦)، بنحوه، وابن ماجه في "سننه" أبواب السنة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (١/٢٨) برقم: (٤٢) بنحوه، و(١/٢٩) برقم: (٤٣) بهذا اللفظ، والدارمي في "مسنده" مقدمة المؤلف، باب اتباع السنة (١/٢٢٨) برقم: (٩٦) بنحوه. وأحمد في "مسنده" (٧/٣٨٠٤) برقم: (١٧٤١٦) بمثله، و(٧/٣٨٠٥) برقم: (١٧٤١٨) بنحوه، و(٧/٣٨٠٥) برقم: (١٧٤١٩) بنحوه مطولا، وابن حبان في "صحيحه" المقدمة، ذكر وصف الفرقة الناجية من بين الفرق التي تفترق عليها أمة المصطفى ﷺ (١/١٧٨) برقم: (٥) بنحوه مطولا. والطبراني في "الكبير" (١٨/٢٤٧) برقم: (٦١٩) بمثله، والحاكم في "مستدركه" كتاب العلم، عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين (١/٩٥) برقم: (٣٢٨) بنحوه، و(١/٩٦) برقم: (٣٣٠) بمثله، و(١/٩٧) برقم: (٣٣١) بنحوه مطولا، (١/٩٧) برقم: (٣٣٢) بنحوه. وقال الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ".

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/٣٧٥ رقم ١٧١٤٥)، وعنه أبو داود في كتاب السنة – باب في لزوم السنة (٤/٣٢٩رقم ٤٦٠٩)، والترمذي في كتاب العلم – باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة (٥/٤٤رقم٢٦٧٦) من طريق: خالد بن معدان، عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي، وحجر بن حجر، عن العرباض بن سارية. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) الإسلام على مفترق الطرق (ص: ٨٧) تأليف: محمد أسد.

(٣) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لابن تيمية (١/٢٤٦).

الكتاب والسُّنة"(١). وآية كمال الدين وحدها حجة كافية وافية على أنّ الكتاب والسُّنة اشتملا على أصول الدين {ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا} [سورة المائدة:٣].

وهذا الكلام عن الاعتصام بالله تعالى يُمثل وضْعَ الأمة على المسار الصحيح لتحقيق أَمْنِها، فما زاغ الزائغون إلا لِمُشَاقَّتهم الله ورسوله – ﷺ-. إن تَفَلُّتَ الفكر وضياعَه رهينٌ بإعراضه عن ربه وخالقه، العالِم بما يُصلح خلْقَه، اللطيف بهم {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ} [سورة الملك:١٤]، وتُظْهِرُ انحرافاتُ البَشَر على تَنَوُّعِها وتَعَدُّدِ مستوياتِها أنَّ جُمَّاعَها: الإعراضُ عن الله سبحانه، وتَوَجُّهُ القلوب الى غيره، وتَفَرُّقُها طرائقَ قِدَدًا في مسالك الأهواء(٢).

والْعلم – بالقرآن والسُّنة – حَيَاةٌ وَنور، وَالْجهلُ موتٌ وظُلمة، وَالشَّر كُله سَببه عدم الْحَيَاة والنور، وَالْخَيْر كُله سَببه النُّور والحياة؛ فَإِن النُّور يكْشف عَن حقائق الأشياء وَيبين مراتبها، والحياة هِيَ الْمُصَحِّحَةُ لصفات الْكَمَال الْمُوجِبَةُ لتسديد الأقوال والأعمال، قَالَ تَعَالَى: {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا} [سورة الأنعام:١٢٢]، كَانَ مَيْتًا بِالْجَهْلِ قَلْبُه فأحياه بِالْعلمِ وَجعل لَهُ من الإيمان نورًا يمشى بِهِ فِي النَّاس، وَالْمَقْصُود أن الْقُرْآن والإيمان هما نورٌ يَجعله الله فِي قلبِ مَن يَشَاء مِن عباده، وأنهما أصل كل خير فِي الدُّنْيَا والآخرة، وعِلْمُهما أَجَلُّ الْعُلُوم وأفضلها، بل لَا عِلْمَ فِي الْحَقِيقَة ينفع صَاحبه إلا عِلْمُهما، {وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [سورة البقرة:٢١٣] [سورة النور:٤٦](٣).

وأما أهل البدع المفارقون لأهل السُّنة فقد تركوا الاعتصام بالكتاب والسُّنة، فأصابهم من الاختلاف والتفرق والتناقض والاضطراب بحسب تركهم للاعتصام بالكتاب والسُّنة، وهم داخلون في قوله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ} [سورة الأنعام:١٥٩]، قال ابن كثير: (والظاهر أن الآية عامة في كل من فارَق دين الله وكان مخالفًا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق

(١) ينظر: أبجد العلوم والوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، لصديق بن حسن القنوجي (٢/ ٤٠٥).
(٢) انظر: الأمن الفكري في ضوء السُّنة النبوية، د. عبد الرحمن بن معلا اللويحق، جائزة نايف بن عبد العزيز للسنة النبوية، الدورة السادسة، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ (ص:١١٥).
(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٢٣١ – ٢٣٥) بتصرف، طبعة دار ابن عفان – السعودية.

ليظهره على الدين كله، وشَرْعُه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه {وَكَانُواْ شِيَعًا} أي: فِرَقًا كأهل الملل والنِّحَل - وهي الأهواء والضلالات - فالله قد بَرَّأَ رسوله مما هم فيه)(١).

وقال أبو القاسم الأصبهاني: (وَأما إِذا نظرت إِلَى أهل الْأَهْوَاء والبدع، رَأَيْتهمْ مُتَفَرّقين مُخْتَلفين أَو شيعًا وأحزابًا، لَا تكَاد تَجِد اثْنَيْنِ مِنْهُم عَلَى طَرِيقَة وَاحِدَة فِي الِاعْتِقَاد، يُبَدِّع بَعضهم بَعْضًا، بل يرتقون إِلَى التكفير، يُكَفِّر الابْن أَبَاهُ وَالرجل أَخَاهُ، وَالْجَار جَاره، تراهم أبدًا فِي تنَازع وتباغض وَاخْتِلَاف، تَنْقَضِي أعمارهم وَلَمَّا تتفق كلماتهم {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ} [سورة الحشر:١٤]، وَكَانَ السَّبَب فِي اتِّفَاق أهل الحَدِيث أَنهم أخذُوا الدّين من الْكتاب وَالسّنة، وَطَرِيق النَّقْل، فأورثهم الِاتِّفَاق والائتلاف. وَأهل الْبِدْعَة أخذُوا الدّين من المعقولات والآراء، فأورثهم الِافْتِرَاق وَالِاخْتِلَاف، فَإِن النَّقْل وَالرِّوَايَة من الثِّقَات والمتقنين قَلما يخْتَلف، وَإِن اخْتلف فِي لفظ أَو كلمة، فَذَلِك اخْتِلَاف لَا يضر الدّين، وَلَا يقْدَح فِيهِ)(٢).

وقال ابن تيمية: (لم يكن في الأمم أعظم اجتماعًا على الهدى وأبعد عن التفرق والاختلاف من هذه الأمة؛ لأنهم أكمل اعتصامًا بحبل الله الذي هو كتابه المنزل، وما جاء به من نبيه المرسل، وكلُّ مَن كان أقرب إلى الاعتصام بحبل الله وهو اتباع الكتاب والسُّنة، كان أَوْلَى بالهدى والاجتماع والرشد والصلاح، وأبعد عن الضلال والافتراق والفتنة، واعْتَبِرْ ذلك بالأمم؛ فأهل الكتاب أكثر اتفاقًا وعلمًا وخيرًا من الخارجين عن الكتب، والمسلمون أكثر اتفاقًا وهدىً ورحمةً وخيرًا من اليهود والنصارى؛ فإن أهل الكتابين قبلنا تفرقوا وبدلوا ما جاءت به الرسل وأظهروا الباطل وعادوا الحق وأهله)(٣).

وقال أيضًا مبيِّنًا أن الاعتصام بالكتاب والسُّنة هو السبيل إلى فض النزاع بين المختلفين: (الناس لا يفصل بينهم النزاع إلا كتاب منزل من السماء وإذا ردوا إلى عقولهم فلكل واحد منهم عقل. ومن هنا يعرف ضلال من ابتدع طريقا أو اعتقادا زعم أن الإيمان لا يتم إلا به مع العلم بأن الرسول لم يذكره وما خالف النصوص فهو بدعة باتفاق

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٣٧٨).
(٢) انظر: الحجة في بيان المحجة (٢/٢٣٩ -٢٤٣).
(٣) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٦/٢٤٢-٢٤٣) طبعة قرطبة.

المسلمين)[1]. وذكر ابن تيمية أن أفضل طريقة لمناظرة أهل الانحراف الفكري هي محاججتهم بالكتاب والسُّنة، فقال: (فكان مِن أَحْسِنِ مناظرتهم أن يقال: ائتونا بكتاب أو سُنَّة حتى نجيبكم إلى ذلك، وإلا فَلَسْنا نجيبكم إلى ما لم يدل عليه الكتاب والسُّنة)[2].

وهذا هو الإمام الشاطبي يكتب عن القرآن والاعتصام به كلامًا يوزن بالذهب إذْ يقول: (إن الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه؛ لأنه معلوم من دين الأمة، وإذا كان كذلك؛ لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة وطمع في إدراك مقاصدها، واللحاق بأهلها، أن يتخذه سميره وأنيسه، وأن يجعله جليسه على مر الأيام والليالي؛ نظرا وعملا، لا اقتصارا على أحدهما؛ فيوشك أن يفوز بالبغية، وأن يظفر بالطلبة، ويجد نفسه من السابقين في الرعيل الأول، فإن كان قادرا على ذلك، ولا يقدر عليه إلا من زاول ما يعينه على ذلك من السنة المبينة للكتاب، وإلا؛ فكلام الأئمة السابقين، والسلف المتقدمين آخذ بيده في هذا المقصد الشريف، والمرتبة المنيفة)[3].

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٦٢/٢٠).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٦١/٢٠).
(٣) انظر: الموافقات للشاطبي (١٤٤/٤).

المطلب الثالث: طلب العلم الشرعي المؤصل على يد العلماء الربانيين

إن العلم النافع المبني على القرآن الكريم والسُّنة النبوية يُكسِب العقل رُشْدًا واتزانًا، والتفكير سلامةً واستقامةً، ويورث القلب إيمانًا صادقًا ويقينًا راسخًا، وهذا كله يُكَوِّن أصلًا عظيمًا تنبني عليه الحقائق، وسَدًّا منيعًا تتكسر عنده الشبهات، ويلزم لتحصيل ذلك أن يكون الإنسان ملازمًا لأهل العلم الثقات الموصوفين بالربانية، المشهود لهم بسلامة المعتقد واستقامة التفكير، كما قال الله تعالى: {هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ} [سورة آل عمران:٧].

ومن رحمة الله تعالى أنه (شَيَّد منار الدين وأعلامَه، وأوضح للخلق شرائعه وأحكامه، وبَعَث صفوتَه وخصائص أوليائه المصطفَيْنَ لتبليغ رسالته مِن أنبيائه يَدْعون إلى توحيده، وتَرْكِ ما خالَفَه من الملل؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وختم الدعوة بنبينا محمد – ﷺ– سيد المرسلين وفضَلَّه على من سَبَقَ وغَبَرَ من الأولين والآخرين، وجعل شريعته مؤيدة إلى يوم الدين، ووكَّل بحفظها مِن الصحابة والتابعين مَن تقوم به الحجة، وترتفع بقوله الشبهة، وهم الفقهاء الذين ألزمهم حراسة شريعته، والتفقه في دينه، فقال تبارك وتعالى: {كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ} [سورة آل عمران:٧٩]، وقال سبحانه: {وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [سورة التوبة:١٢٢]، فجعلهم فرقتين؛ أوجب على إحداهما الجهاد في سبيله، وعلى الأخرى التفقه في دينه؛ لئلا ينقطع جميعهم إلى الجهاد فتندرس الشريعة، ولا يتوفروا على طلب العلم فيغلب الكفار على الملة، فحَرَسَ بيضةَ الإسلام بالمجاهدين، وحفظ شريعة الإيمان بالمتعلمين، وأَمَرَ بالرجوع إليهم في النوازل، ومسألتهم عن الحوادث، فقال عز وجل: {فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [سورة النحل:٤٣، والأنبياء:٧]، وقال تعالى: {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ} [سورة النساء:٨٣]، وقال سبحانه وتعالى: {أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ} [سورة النساء:٥٩]، وبَيَّن أن العلماء هم الذين يخشون ربهم فقال: {إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟} [سورة فاطر:٢٨]، وجعلهم خلفاء في أرضه، وحُجته على عباده، واكتفى

بهم عن بعثه نبيًّا وإرسال نذير، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، فقال: {شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ} [سورة آل عمران:١٨]، وقال: {هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [سورة الزمر:٩].

ثم بَيَّن رسول الله – ﷺ– بسُنَّتِه فَرْضَ العلم على أمته، وحَثَّ على تعلم القرآن وأحكامه، والسُّنن وموجِباتها، والنظرِ في الفقه واستنباطِ الدلائل واستخراج الأحكام)(١). وقد (تَوَاتَرَتْ النُّصُوص النَّبَوِيَّة بأن أفضل الأعمال إِيمَانٌ بِاللَّه، كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ – ﷺ–: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: "**إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ**". قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: "**جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللهِ**". قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: "**حَجٌّ مَبْرُورٌ**"(٢)، فَالإيمان رَأس الأمر، والأعمال بعده على مراتبها ومنازلها، والإيمان لَهُ ركنان: أحدهما: معرفَة مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُول، وَالْعلم بِهِ. وَالثَّانِي: تَصْدِيقه بالْقَوْل وَالْعَمَل، والتصديق بِدُونِ الْعلم والمعرفة محَال؛ فَإِنَّهُ فرْعُ الْعلم بالشَّيْء الْمُصَدَّقِ بِهِ، فَإِذا الْعلم من الإيمان بِمَنْزِلَة الرّوح من الْجَسَد، ولاتقوم شَجَرَة الإيمان إلا على سَاق الْعلم والمعرفة، فالعلم إِذًا أجل المطالب وأسنى الْمَوَاهِب. فالجهاد فِيهِ بذل النَّفس وَغَايَة الْمَشَقَّة، والإيمان عِلْمُ الْقلب وَعَمله وتصديقُه، وَهُوَ أفضل الأعمال، مَعَ أن مشقة الْجِهَاد فَوق مشقته بأضعافٍ مضاعفة؛ وَهَذَا لأن الْعلم يُعَرِّفُ مقادير الأعمال ومراتبها، وفاضِلَها مِن مفضولها، وراجحَها من مرجوحِها، فصاحِبُه لَا يخْتَار لنَفسِهِ إلا أفضل الأعمال، وَالْعَامِل بِلَا عِلْمٍ يَظنُّ أن الْفَضِيلَة فِي كَثْرَة الْمَشَقَّة، فَهُوَ يتَحَمَّل الْمَشَاقَّ وَإِن كَانَ مَا يُعانيه مفضولًا، وَرُبَّ عملٍ فَاضِلٍ والمفضولُ أكثر مشقة مِنْهُ)(٣).

والْعلم إِمَامُ الْعَمَل وقائدٌ لَهُ، وَالْعَمَل تَابع لَهُ ومُؤْتَمٌّ، بِهِ فَكُلُّ عملٍ لَا يكون خلف الْعلم مقتديًا بِهِ فَهُوَ غير نَافِع لصَاحبه، بل مَضَرَّة عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ عمر بن عبد العزيز: «**مَنْ عَمِلَ**

(١) انظر: الفقيه والمتفقه للخطيب (١/٦٩-٧٠).

(٢) ومن ذلك ما أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الإيمان، باب من قال إن الإيمان هو العمل (١/١٤ رقم: ٢٦) بمثله، وأيضًا في كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور (٢/١٣٣ رقم: ١٥١٩) بمثله، ومسلم في "صحيحه" كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تَعَالَى أفضل الْأعمال (١/٦٢ رقم: ٨٣) بنحوه.

(٣) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٢٩٩ و٣٠١-٣٠٢).

فِي غَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ»(١)، وعَنْ ضِرَارِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: «**إِنَّ قَوْمًا تَرَكُوا الْعِلْمَ، وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَاتَّخِذُوا مَحَارِيبَ فَصَامُوا وَصَلَّوْا، حَتَّى بَلِيَ جِلْدُ أَحَدِهِمْ عَلَى عَظْمِهِ، وَخَالَفُوا السُّنَّةَ فَهَلَكُوا، فَلَا وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا عَمِلَ عَامِلٌ قَطُّ عَلَى جَهْلٍ إِلَّا كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرُ مِمَّا يُصْلِحُ**»(٢)، وقال مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: «**الْعِلْمُ أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِ، أَلَا تَرَى أَنَّ الرَّاهِبَ يَقُومُ اللَّيْلَ، فَإِذَا أَصْبَحَ أَشْرَكَ**»(٣)، وألاعمال إِنَّمَا تَتَفَاوَت فِي الْقبُول وَالرَّدّ بِحَسب موافقتها للْعلم ومخالفتها لَهُ، فَالْعَمَل الْمُوَافق للْعلم هُوَ المقبول، والمخالف لَهُ هُوَ الْمَرْدُود، فالعلم هُوَ الْمِيزَان وَهُوَ الْمَحَكُّ، والْعَامِل بِلَا علم كالسائر بِلَا دَلِيل، وَمَعْلُوم أن عَطَبَ مثل هَذَا أقْربُ من سَلَامَته، وإنْ قُدِّرَ سَلَامَتُه اتِّفَاقًا نَادرًا فَهُوَ غير مَحْمُود، بل مَذْمُومٌ عِنْد الْعُقَلَاء، وَكَانَ شيخ الاسلام ابْن تَيْمِية يَقُول: "**من فَارق الدَّلِيل ضل السَّبِيل، وَلَا دَلِيل إِلَّا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُول**"، وقَالَ الْحَسَنُ: «**الْعَامِلُ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّالِكِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ، وَالْعَامِلُ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرُ مِمَّا يُصْلِحُ، فَاطْلُبُوا الْعِلْمَ طَلَبًا لَا تَضُرُّوا بِالْعِبَادَةِ، وَاطْلُبُوا الْعِبَادَةَ طَلَبًا لَا تَضُرُّوا بِالْعِلْمِ، فَإِنَّ قَوْمًا طَلَبُوا الْعِبَادَةَ وَتَرَكُوا الْعِلْمَ حَتَّى خَرَجُوا بِأَسْيَافِهِمْ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ – ﷺ – وَلَوْ طَلَبُوا الْعِلْمَ لَمْ يَدُلَّهُمْ عَلَى مَا فَعَلُوا**»(٤).

(**وضابط العلم النافع**: أنه يزيل عن القلب شيئين، وهما: الشبهات، والشهوات. فالشبهات: تورث الشك، والشهوات: تورث دَرَنَ القلب وقسوتَه، وتُثبط البدن عن الطاعات. فعلامة العلم النافع أن يزيل هذين المرضين العظيمين، ويجلب للعبد في مقابلتها شيئين، وهما: اليقين: الذي هو ضد الشكوك. الثاني: الإيمان التام الْمُوصل للعبد لكلِّ مطلوب، المثمر للأعمال الصالحة الذي هو ضد للشهوات. فكلما ازداد الإنسان من العلم النافع، حصل له كمال اليقين، وكمال الإرادة، ولا تتم سعادة العبد إلا باجتماع هذين

(١) أخرجه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (١/١٣١ رقم ١٣٢)، وقد رُوِي مثله عن وُهَيْبِ بْنِ الْوَرْدِ كما في "حلية الأولياء" لأبي نعيم (٨/١٥٦)، وسوف يأتي مثله عن الحسن البصري بعد قليل.

(٢) أخرجه الخطيب في "الفقيه والمتفقه" (١/١٠٨ رقم٦٥) طبعة دار ابن الجوزي – الرياض.

(٣) أخرجه الخطيب في "الفقيه والمتفقه" (١/١٠٩-١١٠ رقم٦٧) طبعة دار ابن الجوزي – الرياض.

(٤) انظر قول الإمام أحمد في: مسائل حرب الكرماني للإمام أحمد (٢/٩٤٦) طبعة جامعة أم القرى، وانظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٣٠١-٣٠٤) مع زيادة وتصرف.

الأمرين، وبهما تُنال الإمامة في الدين، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } [سورة السجدة:٢٤])(١).

وقد جُعِلَ طلبُ الْعلم من سَبِيل الله لَأن بِهِ قِوَام الإسلام، كَمَا أن قوامه بِالْجِهَادِ، فقِوَام الدِّين بِالْعلمِ وَالْجِهَاد، وَلِهَذَا كَانَ الْجِهَاد نَوْعَيْنِ: جِهَاد بِالْيَدِ والسِّنان، وَهَذَا المشارك فِيهِ كثير، وَالثَّانِي: الْجِهَاد بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَان؛ وَهَذَا جِهَاد الْخَاصَّة من أَتْبَاع الرُّسُل، وَهُوَ جِهَاد الأئمة، وَهُوَ أفضل الجهادين؛ لِعَظَمِ منفعَته وَشِدَّة مُؤْنَته وَكَثْرَة أعدائه، قَالَ تَعَالَى فِي سُورَة الْفرْقَان وَهِي مَكِّيَّة: {وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا. فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا } [سورة الفرقان:١٥-٥٢]، فَهَذَا جِهَاد لَهُم بِالْقُرْآنِ وَهُوَ أكبر الجِهَادَيْن، وَهُوَ جِهَاد الْمُنَافِقين أيضًا؛ فَإِن الْمُنَافِقين لم يَكُونُوا يُقَاتِلُون الْمُسلمين، بل كانوا معهم فِي الظَّاهِر، وَرُبمَا كَانُوا يُقَاتلُون عدوَّهم مَعَهم، وَمَعَ هَذَا فقد قَالَ تَعَالَى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [سورة التوبة:٧٣] [سورة التحريم:٩]، ومَعْلُومٌ أن جِهَاد الْمُنَافِقين بِالْحجَّةِ وَالْقُرْآن.

وَالْمَقْصُود أن سَبِيل الله هِيَ الْجِهَاد وَطلب الْعلم ودعوة الْخَلق بِهِ إِلَى الله، وَلِهَذَا قَالَ معَاذ - رضى الله عَنهُ -: "**عَلَيْكُم بِطَلَب الْعلم؛ فَإِنَّ تَعَلُّمَه لله خشيَة، ومدارسته عبَادَة، ومذاكرته تَسْبِيح، والبحث عَنهُ جِهَاد**"(٢). وَلِهَذَا قرن سُبْحَانَهُ بَين الْكتاب الْمُنزَّل وَالْحَدِيد النَّاصِر، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ

(١) انظر: القواعد الفقهية المنظومة وشرحها، للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، إصدار المراقبة الثقافية، إدارة مساجد محافظة الجهراء – السعودية، (الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، (ص: ١٠٨ – ١٠٩).

(٢) رواه مرفوعًا: ابن عبد البر في "جامع بيان العلم" (٦٥/١)، والخطيب في "الفقيه والمتفقه" (٥١/١). ورواه موقوفًا: ابن عبد البر أيضًا في "جامع بيان العلم" (٦٥/١)، وأبو نعيم في "الحلية" (٢٣٩/١)، وقال: "هو حديث حسن جدًّا، ولكن ليس له إسناد قوي، وقد رويناه من طرق شتى موقوفًا"، وقال العراقي موضحًا كلام ابن عبد البر: "قوله: حسن؛ أراد به الحسن المعنوي، لا الحسن المصطلح عليه بين أهل الحديث، فأن في إسناده موسى بن محمد البلقازوي، كَذَّبه أبو زرعة وأبو حاتم"، وانظر: الترغيب والترهيب للمنذري (٩٥/١)، وتخريج إحياء علوم الدين للعراقي (١١/١)، وتنزيه الشريعة لابن عراق (٢٨١/١) وقال ابن القيم: "هذا الأثر معروف عن معاذ، ولا يَثْبُت مرفوعًا إلى النبي - ﷺ -، وحَسْبُه أن يصل إلى معاذ".

وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ} [سورة الحديد:٢٥]، فَذكر الْكتاب وَالْحَدِيد إِذْ بهما قوام الدّين. وَلَمَّا كَانَ كلٌّ من الْجِهَاد بِالسَّيْفِ وَالْحجّة يُسمَّى سَبِيل الله، فَسَّرَ الصَّحَابَة - رضى الله عَنْهُم - قَوْله: {أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ} [سورة النساء:٥٩]، بالأمراء وَالْعُلَمَاء؛ فَإِنَّهُم المجاهدون فِي سَبِيل الله؛ هَؤُلَاءِ بِأَيْدِيهِم، وَهَؤُلَاء بألسنتهم، فَطلب الْعلم وتعليمه من أعظم سَبِيل الله عز وَجل. قَالَ أبو الدَّرْدَاء: "**مَن رَأَى الغُدُوَّ والرَّوَاح إلى الْعلم لَيْسَ بجهادٍ فقد نَقَصَ فِي عقله ورأيه**"(١)، وعن علي بن عبد الله البارقي الْأَزْدِيّ قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: «**أَلَّا أَدُلُّكَ عَلَى خَيْرٍ مِنَ الْجِهَادِ؟**»، فَقُلْتُ: بَلَى قَالَ: «**تَبْنِي مَسْجِدًا وَتُعَلِّمُ فِيهِ الْفَرَائِضَ وَالسُّنَّةَ وَالْفِقْهَ فِي الدِّينِ**»، وقَالَ الدَّرْدَاءِ، قَالَ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَغْدُو إِلَى الْمَسْجِدِ لَخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ أَوْ يُعَلِّمُهُ إِلَّا كُتِبَ لَهُ أَجْرُ مُجَاهِدٍ لَا يَنْقَلِبُ إِلَّا غَانِمًا**»(٢).

(والْحَاجة الى الْعلم عَامَّةٌ لكلِّ أحَدٍ، للملوك فَمَن دونهم، فَكلُّ أحَدٍ مُحْتَاج إِلَى طَاعَة الْعَالم؛ فَإِنَّهُ يأمر بِطَاعَة الله وَرَسُوله، فَيجب على الْخلق طَاعَته قَالَ تَعَالَى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ} [سورة النساء:٥٩]، وَفُسّر أولو الأمر بالعلماء، قَالَ ابْن عَبَّاس: "هم الْفُقَهَاء وَالْعُلَمَاء أهل الدِّين الَّذين يُعلمُونَ النَّاس دينهم أوجب الله تَعَالَى طاعتهم، وَهَذَا قَول مُجَاهِد وَالْحسن وَالضَّحَّاك وإحدى الرِّوَايَتَيْنِ عَن الإمام أَحْمَد. وفُسروا بالأمراء، وَهُوَ قَول ابْن زيد احدى الرِّوَايَتَيْنِ عَن ابْن عَبَّاس وَأحمد، والآية تتناولها جَمِيعًا؛ فطاعة وُلَاة الأمر وَاجِبَة إِذا أَمروا بِطَاعَة الله وَرَسُوله، وَطَاعَة الْعلمَاء كَذَلِك، فالعالم بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُول الْعَامِلُ بِهِ أطوعُ فِي أهل الأرض من كل أحَدٍ)(٣).

وقد أمَر - سُبْحَانَهُ - بسؤال أهل العلم وَالرُّجُوع الى أَقْوَالهم، وَجعل ذَلِك كَالشَّهَادَةِ مِنْهُم فَقَالَ: {وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [سورة الأنبياء:٧]، وأهل الذّكر هم أهل الْعلم بِمَا أُنْزِل على الأنبياء(٤)، وقد شهد - سُبْحَانَهُ - لمن آتَاهُ الْعلم بأنه قد آتَاهُ خيرا كثيرًا فَقَالَ تَعَالَى:

(١) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٢٧١ - ٢٧٣).
(٢) أخرج هذه الآثار: ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (١/١٥٢ – ١٥٣ رقم ١٥٩ - ١٦١).
(٣) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٤٣٦).
(٤) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٢٢٢).

{يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ} [سورة البقرة:٢٦٩]، قَالَ ابْن قُتَيْبَة وَالْجُمْهُور: الْحِكْمَة إِصَابَة الْحق وَالْعَمَل بِهِ، وَهِي الْعلم النافع وَالْعَمَل الصَّالح(١).وَذَلِكَ أن الشَّيْطَان يَضَعُ الْبِدْعَة فيُبْصِرُها الْعَالِمُ وَيَنْهى عَنْهَا، وَالْعَابِدُ مقبلٌ على عبَادَة ربِّه لَا يتَوَجَّه لَهَا وَلَا يعرفهَا، فَالْعَالِم يُفْسد على الشَّيْطَان مَا يسْعَى فِيهِ، ويهدم مَا يَبنيه، فَكُلَّمَا أَرَادَ إِحْيَاء بِدعَة وإماتة سُنَّة حَالَ الْعَالم بَينه وَبَين ذَلِك، فَلَا شَيْءَ أشدُّ عَلَيْهِ من بَقَاء الْعَالِم بَين ظَهْرَانَيْ الأُمة، وَلَا شَيْءَ أحبُّ اليه من زَوَاله مِن بَين أظْهُرِهم؛ ليتَمَكَّن من إِفْسَاد الدِّين وإغواء الأُمة، وَأَمَّا العابد فغايتُه أن يجاهده ليَسْلَم مِنْهُ فِي خَاصَّة نَفسه، وهيهات لَهُ ذَلِك(٢).

وقد بينت لنا السُّنة النبوية أن العلم إنما يكون بالفقه فيه وفهم المراد منه، وليس مجرد جمع المعلومات أو حفظها؛ فإنه ما أُتِي المنحرفون فكريًّا إلا من قِبَل جهلهم بفقهِ ما حفظوه من نصوص! والفقه مراتب، فأدناها: مجرد الفهم ولو بعد حين، وأوسطها سبق الغير إلى هذا الفهم، وأعلاها أن يصبح الفهم سجيةً ومَلَكة، فعن مُعَاوِيَةَ – رضي الله عنه – قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ – ﷺ– يَقُولُ: "**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**"(٣). دَلَّ هذا الحديث على أن من لم يُفَقِّهُه فِي دينه لم يُرِد بِهِ خيرًا، كَمَا أن من أراد بِهِ خيرًا فَقَّهَه فِي دينه، وَمن فَقَّهَه فِي دينه فقد أراد بِهِ خيرًا، إذا أُريد بالفقه الْعِلمُ المستلزِم للْعَمَل، وأما إن أُرِيد بِهِ مُجَرّد الْعِلم فَلَا يدل على أن مَن فَقُهَ فِي الدِّين فقد أُرِيد بِهِ خيرًا؛ فَإِنَّ الْفِقْهَ حِينَئِذٍ يكون شرطًا لارادة الْخَيْر، وعَلى الأول يكون مُوجِبًا(٤). **ويُعْنى بالفقه**: معرفة كل ما جاء عن الله سبحانه وتعالى: عقيدةً، وعبادةً، وأخلاقًا، ونُظُمًا، وتشريعات. وهذا المعنى مرادف للفظ: "الشَّرع"، ويتناول ما عُرف بعد ذلك باسم علم العقيدة، وعلم الفقه، وعلم الأخلاق(٥).

(١) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢٢٧/١).
(٢) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢٦٨/١ – ٢٦٩).
(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين (١٢٥) رقم: ٧١) ، ومسلم في "صحيحه"، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق (٥٣/٦ رقم: ١٠٣٧).
(٤) انظر: مفتاح دار السعادة (٢٤٦/١).
(٥) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (١٢/١ — ١٣)، توجيهات نبوية على الطريق، د. السيد محمد نوح، دار اليقين — المنصورة — مصر، الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م)، (ص:٣١ — ٣٢).

وللفقه في الدين فوائد كثيرة وثمرات جَمَّة، نذكر منها:

١- أنه طريق لمعرفة الله حق المعرفة، وما له وحده على عباده من العبادة المتمثلة في التوحيد والطاعة والالتزام، والخشية والخوف والرجاء. قال تعالى: {شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} [سورة آل عمران:١٨]، وقال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ} [سورة فاطر:٢٨].

٢- أنه طريق لمعرفة حكم الله لا سيما في الغامض من المسائل، وكذلك في المسائل الطارئة فيبقى دين الله مواكبًا لكل الظروف والأزمنة والبيئات. قال تعالى: {فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [سورة النحل:٤٣] [سورة الأنبياء:٧]، وقال تعالى: {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ} [سورة النساء:٨٣].

٣- أنه طريق لتمييز الأصيل في منهج الله من الدخيل عليه، بحيث يُعمل بالأصيل ويُستمسك به، ويُهمل الدخيل ولا يُعبأ به. قال تعالى: {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ} [سورة القصص:٥١-٥٣]، وقال تعالى: {قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا. وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [سورة الإسراء:١٠٧-١٠٩]؛ ذلك أنهم عرفوا قيمته فاستمسكوا به.

٤- أنه يكون سببا في ترتيب الأمور، ورعاية الأولويات، بحيث لا يضيع مجمع عليه من أجل مختلف فيه، أو يضيع فرض من أجل سُنَّة، أو يُرتكب محظور في سبيل مباح، أو يُهمل أصل من أجل أمر ثانوي وهكذا. ولعل في حديث جريج ما يشرح ذلك، إذْ فيه: «**أنه كان يصلي في صومعته، وكانت أمه تأتيه، فتناديه فيُشرف عليها فيكلمها، فأتته يومًا وهو في صلاته، فنادته، قالت: أي جريج، أَشْرِفْ عَلَيَّ أُكَلِّمْك أنا أُمُّك، فقال: أجيبها، أو أصلي؟**». وفي رواية أنه قال: «**يارب أمي وصلاتي، فاختار صلاتَه، فرَجَعَتْ، ثم أتته فصادَفْتُه يصلي، فقالت: يا جريج أنا أُمُّك فكَلِّمْني، فقال مثلَه، فدَعَتْ عليه قائلةً:**

اللهم لا تُمِتْهُ حتى تُرِيَهُ وجُوهَ المومِسَات»(١). وجاء في حديث يزيد بن حوشب، عن أبيه رَفَعَهُ: «**لَوْ كَانَ جُرَيْجٌ عَالِمًا لَعَلِمَ أَنَّ إِجَابَتَهُ أُمَّهُ أَوْلَى مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ**» وفي رواية: «**أَوْلَى مِنْ صَلَاتِهِ**»(٢). قال الحافظ ابن حجر: (وفيه أن الأمرين إذا تعارضا بُدِئَ بأهمهما)(٣).

٥- وأنه يكون سببًا في اقتلاع جذور اليأس والقنوط من نفوس العصاة والمذنبين، بل زَرْع الأمل والثقة في هذه النفوس. عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «**كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ، فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا، فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وَأَوْحَى اللهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ لَهُ**»(٤) .

قال ابن حجر: (وفيه فضل العالم على العابد، لأن الذي أفتاه أوَّلًا بأن لا توبة له غَلَبَتْ عليه العبادة، فاستَعظم وقوعَ ما وقع من ذلك القاتل من استجرائه على قَتْلِ هذا العدد الكثير، وأما الثاني فغَلَبَ عليه العلمُ فأفتاه بالصواب، ودَلَّهُ على طريق النجاة)(٥).

٦- أنه يكون طريقًا لمعرفة ثمار الطاعة والاستقامة في الدنيا والآخرة، وكذلك معرفة عواقب المعصية والانحراف في الدنيا والآخرة، فيكون الحرص على الطاعة والاستقامة، ويكون الفرار من المعصية والبعد عن الانحراف. قال تعالى: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ

(١) أخرج قصة جريج: البخاري في "صحيحه" كتاب المظالم، باب إذا هدم حائطا فليبن مثله (١٣٧/٣ رقم: ٢٤٨٢)، وفي كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله واذكر في الكتاب مريم (١٦٥/٤ رقم: ٣٤٣٦)، ومسلم في "صحيحه" كتاب البر والصلة والآداب ، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها (٤/٨ رقم: ٢٥٥٠).

(٢) أورده ابن حجر في "فتح الباري" (٧٨/٣ و٤٨١/٦)، وعزاه إلى الحسن بن سفيان وغيره، وعَقَّبَ عليه بقوله: "ويزيد هذا مجهول".

(٣) انظر: فتح الباري (٤٨٣/٦).

(٤) أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب أحاديث الأنبياء ، باب بعد باب حديث الغار (١٧٤/٤ رقم: ٣٤٧٠) بهذا اللفظ، ومسلم في "صحيحه" كتاب التوبة ، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (١٠٣/٨ رقم: ٢٧٦٦) بنحوه مُطَوَّلًا.

(٥) انظر: فتح الباري (٥١٨/٦).

ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ } [سورة القصص:٨٠]، وقال تعالى: {قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [سورة الأنعام:١٥] [سورة الزمر:١٣].

٧- أنه يكون طريقًا لمعرفة قيمة الوحي المنزل من عند الله، وسبيل التعامل معه. قال تعالى: {وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ} [سورة سبأ:٦]، وقال تعالى: {وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [سورة الحج:٥٤].

وللفقه في الدين أصول وقواعد يقوم عليها، وأهمها:

١- اليقين أن الإسلام دين يشمل مظاهر الحياة جميعًا في كل شأن من شئونها، وكل ناحية من نواحيها، فهو عقيدة، وعبادة، وأخلاق، ونظم وتشريعات.

٢- القرآن الكريم، والسُّنة النبوية هما المصدران الأساسيان في التشريع الإسلامي، إما نصًّا، وإما استنباطًا بشروطه الصحيحة المتعارف عليها بين العلماء.

٣- اللغة العربية ضرورة لا بد منها للفهم الصحيح لكتاب الله وسُنة رسوله محمد ﷺ.

٤- الاطلاع على فقه العلماء من عصر الصحابة إلى وقتنا هذا، فإن الله قد منحهم نورًا وبصيرة في الفقه لتَقْوَاهم، وتَمَكُّنِهم من هذا الفقه، وبصيرتهم بواقعهم وواقع الآخرين المحيطين بهم.

٥- جَمْعُ النصوص المتعلقة بأي مسألة من المسائل، ثم دراستها في ضوء بعضها البعض، ومحاولة التوفيق بين المتعارض منها إما بالجمع، وإما بالترجيح وفق القواعد المتعارف عليها بين العلماء.

٦- اختلاف العلماء في الفقه في غير المجمع عليه ظاهرةٌ صحية لتفاوت العقول في الفقه، ولتباين الأدلة من ناحية الاطلاع عليها، وعدم الاطلاع، ومن ناحية ثبوتها وعدم ثبوتها، ومن ناحية تَغَيُّر جهة الدلالة، وتَغَيُّر الواقع من بيئة إلى بيئة... ومن حال إلى حال.

٧- لا يصح اتخاذ الخلاف المذكور آنفًا سبيلًا للتفرق في الدين، أو الخصومة والبغضاء، ولا بأس من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله، والتعاون على الوصول إلى الحقيقة من غير أن يَجُرَّ ذلك إلى المراء المذموم، والتعصب.

٨- سؤال أهل الذِّكر عند الجهل، وتَعَذُّر الوصول إلى الحقيقة، قال تعالى : {وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ} [سورة النحل:٤٣] [سورة الأنبياء:٧](١).

وينبغي على المسلم الذي يطلب العلم أن يلزم غَرْزَ العلماء الربانيين الثقات، ويتحرى التلقي عنهم لا سيما في أوائل الطلب، ويحذر حذرًا شديدًا من الاعتماد على الكتب وحدها في البداية؛ فإن هذا ينتهي بالطالب إلى أخطاء لا تحمد عقباها، علىأنه يشترط فيمن تجب ملازمته من العلماء أن يكون من أهل الاجتهاد والحكمة بحيث يبدأ التربية باختيار رأيٍ واحد، حتى إذا تيقن قوةَ ساعِدِ تلميذه، واشتداد عُودِه أطلعه على الآراء الأخري في غير مذهبه، وأَعْلَمَه كيف يوازن بين الأدلة فيجمع بينها، أو يرجح بعضها على بعض(٢).

قال الإمام أبو حامد الغزالي وهو يتكلم عن آداب المعلم والمتعلم ووظائفهما: (الوظيفة الرابعة: أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة؛ فإن ذلك يدهش عقله، ويحير ذهنه، ويفتر رأيه، ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع، بل ينبغي أن يتقن أوَّلًا الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه، ثم بعد ذلك يصغي إلى المذاهب والشُّبَه، وإن لم يكن أستاذه مستقلًّا باختيارِ رأيٍ واحد، وإنما عادته نَقْل المذاهب، وما قيل فيها، فليحذر منه فإنَّ إضلاله أكثر من إرشاده، فلا يصلح الأعمى لقَوْدِ العميان وإرشادهم، ومَن هذا حاله يُعد في عمى الحيرة وتِيهِ الجهل، ومَنْعُ المبتدىء عن الشُّبَه يُضاهي مَنْعَ الحديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار، ونَدْبُ القَوي إلى النظر في الاختلافات يُضاهي حَثَّ القَوي على مخالطة الكفار، ولهذا يُمنع الجبان عن التهجم على صَفِّ الكفار، ويُندب الشجاع له)(٣).

وقد ذمّ – سُبْحَانَهُ – أهل الْجَهْل فِي مَوَاضِع كَثِيرَة من كِتَابه، فَقَالَ تَعَالَى: {وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ} [سورة الأنعام:١١١]، وَقَالَ: {وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ} [سورة الأنعام:٣٧]، وَقَالَ تَعَالَى: {أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا} [سورة الفرقان:٤٤]، فَلم يقْتَصر – سُبْحَانَهُ – على تَشْبِيه

(١) انظر: توجيهات نبوية على الطريق، د. السيد محمد نوح، (ص:٣٧ – ٤٨) بتصرف.
(٢) انظر: توجيهات نبوية على الطريق، د. السيد محمد نوح، (ص:٥١) بتصرف.
(٣) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٥١/١).

الْجُهَّال بالأنعام حَتَّى جعلهم أضل سَبِيلًا مِنْهُم، وَقَالَ: {إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} [سورة الأنفال:٢٢]، أخبر أن الْجُهَّال شَرُّ الدَّوَابّ عِنْده على اخْتِلَاف أصنافها من الْحمير وَالسِّبَاع وَالْكلاب والحشرات وَسَائِر الدَّوَابّ، فالجُهَّال شَرّ مِنْهُم، وَلَيْسَ عَليّ دينِ الرُّسُل أضرُّ مِن الْجُهَّال، بل هم أعداؤهم على الْحَقِيقَة، وَقَالَ تَعَالَى لنَبيه - ﷺ- وَقد أعاذه: {فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ} [سورة الأنعام:٣٥]، وَقَالَ كَلِيمُه مُوسَى - عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام -: {أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ} [سورة البقرة:٦٧]، وَقَالَ لأوّل رُسُلِه نوح - عَلَيْهِ السَّلَام - {إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ} [سورة هود:٤٦]، فَهَذِهِ حَال الْجَاهِلين عِنْده. وَأخْبَرْ - سُبْحَانَهُ - عَن عُقُوبَته لأعدائه أنه مَنعهم عِلَمَ كِتَابِه ومعرفته وفِقْهِه فَقَالَ تَعَالَى: {وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا. وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا} [سورة الإسراء:٤٥-٤٦]، وَأمر نبيه - ﷺ- بالإعراض عَنْهُم فَقَالَ: {وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ} [سورة الأعراف:١٩٩]، وأثنى على عباده بالإعراض عَنْهُم ومُتاركتِهم كَمَا فِي قَوْله: {وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ} [سورة القصص:٥٥]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا} [سورة الفرقان:٦٣]، وَكُلُّ هَذَا يدل على قُبح الْجَهْل عِنْده، وبُغْضِه للْجَهْل وَأَهله، وَهُوَ كَذَلِك عِنْد النَّاس فَإِنَّ كُل أحدٍ يتبرأ مِنْهُ وَإِن كَانَ فيه(١).

وينبغي أن نشير هنا إلى أنه مَن ضَعُفَ عِلْمُه وَقَلَّتْ بصيرتُه (إذا وَرَدَتْ على قلبه أدنى شُبْهَة قَدَحَتْ فِيهِ الشَّكَ والرِّيَب، بِخِلَاف الراسخ فِي الْعلم؛ لَو وَرَدَتْ عَلَيْهِ من الشُّبَه بِعَدَد أمواج الْبَحْر مَا أزالت يقينه، وَلَا قَدَحَتْ فِيهِ شَكًّا؛ لأنه قد رَسَخ فِي الْعلم فَلَا تَستفزه الشُّبُهَات، بل إذا وَرَدَتْ عَلَيْهِ رَدَّهَا حَرَسُ الْعلم وجَيْشُه مغلولةً مغلوبةً.

والشبهة: وَارِدٌ يَرِد على الْقلب يَحُول بَينه وَبَين انكشاف الْحق لَهُ، فَمَتَى بَاشَر الْقلبُ حَقِيقَةَ الْعلم لم تُؤَثر تِلْكَ الشُّبْهَة فِيهِ، بل يَقْوَى عِلْمُه ويقينُه بِرَدِّهَا وَمَعْرِفَة بُطْلَانهَا، وَمَتى لم يُبَاشر حَقِيقَةَ الْعلم بِالْحَقِّ قلبُه قَدَحَتْ فِيهِ الشَّكَ بِأول وهلة، فإنْ تَدَارَكَها وإلا تَتَابَعَت على قلبه أمثالُها، حَتَّى يصير شاكًّا مُرْتَابًا.

وَالْقلبُ يَتَوَارَدُه جيشان من الْبَاطِل: جَيشُ شهواتُ الغَيِّ، وجيشُ شُبُهَاتِ الْبَاطِل؛ فأيما قلبٍ صَغا إليها وركن إليها تَشَرَّبَها وامتلأ بهَا فينضح لِسَانُه وجوارحُه بموجِبها، فَإِنْ أُشْرِب

(١) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٢٣٠ - ٢٣١) طبعة دار ابن عفان - السعودية.

شُبُهَاتِ الْبَاطِلِ تَفَجَّرَتْ على لِسَانه الشكوكُ والشبهاتُ والإيراداتُ، فيظنُّ الْجَاهِل أن ذَلِك لِسَعَةِ عِلْمِه، وَإِنَّمَا ذَلِك من عدم عِلْمِه ويقينِه. وَقَالَ لِي شيخ الإسلام – رضى الله عَنهُ –، وَقد جَعَلْتُ أُورِد عَلَيْهِ إيرادًا بعد إيرَاد: "**لا تجعل قَلْبك للإيرادات والشبهات مثل السِّفِنْجَة، فيَتَشَرَّبَها، فَلَا ينضح إلا بهَا، وَلَكِن اجْعَلْهُ كالزجاجة الْمُصْمَتة تَمُرُّ الشُّبُهَات بظاهرها، وَلَا تَسْتَقِر فِيهَا، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وَإِلَّا فإذا أَشْرَبْتَ قَلْبَك كلَّ شُبْهَة تَمُرُّ عَلَيْهَا صَار مَقَرًّا للشبهات**"، أَوْ كَمَا قَالَ، فَمَا أعْلَم أني انتفعت بِوَصِيَّةٍ فِي دفْعِ الشُّبُهَات كانتفاعي بذلك.(١).

ومن هنا يتبين لنا بوضوح أن **الطريق إلى السلامة من الشبهات إنما يكون بالعلم الشرعي الْمَكِين**، وبناءً على كمال العلم وقُوَّتِه وما ينتجه من الثقة واليقين (كان الصحابة أعلم الأمة على الإطلاق وبينهم وبين من بعدهم في العلم واليقين كما بينهم وبينهم في الفضل والدين. ولهذا كان ما فهمه الصحابة من القرآن أَوْلى أن يصار إليه مما فهمه من بعدهم، فانضاف حُسن قصْدِهم إلى حُسن فهمهم، فلم يختلفوا في التأويل في باب معرفة الله وصفاته وأسمائه وأفعاله واليوم الآخر، ولا يُحْفَظُ عنهم في ذلك خلافٌ لا مشهور ولا شاذ، **فلَمَّا حدث بعد انقضاء عصرهم مَن ساءَ فهمُه وساءَ قصدُه وقعوا في أنواع من التأويل بحسب سوء الفهم وفساد القصد، وقد يجتمعان، وقد ينفردان، وإذا اجتمعا تَوَلَّد مِن بينهما جهْلٌ بالحق ومعاداةٌ لأهله واستحلالُ ما حَرَّمَ الله منهم**.

وإذا تأملتَ أصول المذاهب الفاسدة رأيتَ أربابها قد اشتقوها من بين هذين الأصلين، وحَمَلَهُم عليها منافسةٌ في رياسةٍ أو مالٍ أو تَوَصُّلٍ إلى عَرَضٍ من أعراض الدنيا تَخْطُبه الآمال وتَتَبْعه الهِمم وتَشرئب إليه النفوس، فيتفق للعبد شبهةٌ وشهوةٌ، وهما أصلُ كلِّ فسادٍ ومنشأُ كلِّ تأويلٍ باطل، وقد ذم الله سبحانه من اتبع الظنَّ وما تَهْوَى الأنفسُ، فالظنُّ: الشبهات. وما تَهْوَى الأنفسُ: الشهوات؛ وهما اللذان ذكرهما في سورة براءة في قوله تعالى: { كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ } [سورة التوبة:٦٩]، فذَكَرَ الاستمتاع **بالخَلَاق** وهو التمتعُ بالشهوات، وهو نصيبهم الذي آثروه في الدنيا على حظهم من الآخرة، **فالخَوْضُ**: الذي اتبعوا فيه الشبهات.

(١) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٤٤٢ – ٤٤٥).

فاستمتعوا بالشهوات، وخاضوا بالشبهات؛ فنشأ عنهما التفرقُ المذموم الذي ذم الله أهله في كتابه ونهى عباده المؤمنين عن التشبه بهم فقال: {وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ. يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ} [سورة آل عمران:١٠٥-١٠٦]، قال ابن عباس: تَبْيَضُّ وجوه أهل السُّنة والائتلاف، وتَسْوَدُّ وجوه أهل الفرقة والاختلاف)(١).

والحمد لله أن أبقى العلماء في كل جيل من هذه الأمة المباركة يحفظون عليها دينها (فإنَّ هذه الأُمة أكمل الأمم، وَخير أُمَّة أُخرجت للنَّاس، ونَبِيُّها خَاتم النَّبِيين لَا نَبِي بعده، فَجعل الله الْعلمَاء فِيهَا كلَّما هلك عَالِمٌ خَلَفَه عَالِمٌ لِئَلَّا تُطمس معالم الدِّين وتَخفَى أعلامُه، وَكَانَ بَنو إسرائيل كلَّما هلك نَبِيٌّ خَلَفَه نَبِيٌّ، فَكَانَت تَسُوسُهم الأنبياء، وَالْعُلَمَاءُ لهَذِهِ الأُمة كالأنبياء فِي بني إسرائيل، ينفون عَن هذا العلم تَحْرِيف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الْجَاهِلين، وَهَذَا يدل على انه لَا يزَال مَحْمُولًا فِي الْقُرُون قرنًا بعد قرن، وَفِي "صَحِيح ابن حبان" من حَدِيث أبي عِنَبة الْخَولَانِيّ قَالَ: قَالَ رَسُول الله - ﷺ-: "**لَا يَزَال اللهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّين غَرْسًا يَستعملُهم فِي طَاعَتِه**"(٢)، وغَرْسُ الله هم أهل الْعلم وَالْعَمَل، فَلَو خَلَت الأرض مِن عَالِمٍ خَلَت مِن غَرْسِ الله)(٣).

وقد أوضح الإمام الشاطبي أن **العالم الذي ينبغي اتباعُه** هو من قام بالشريعة وتحلى بها ووافق أحكامها، فقال: (على كل تقدير لا يتبع أحد من العلماء إلا مِن حيث هو متوجهٌ نحو الشريعة، قائم بحجتها، حاكم بأحكامها جملة وتفصيلًا، وأنه من وُجِد متوجهًا غير تلك

(١) انظر: الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ، (٢/٥٠٩-٥١١).

(٢) أخرجه ابن ماجه في "سننه" أبواب السنة، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ (١/٦ رقم: ٨)) بمثله، وأحمد في "مسنده" (٧/٣٩٩٩ رقم: ١٨٠٦٥) بمثله، وابن حبان في "صحيحه" كتاب البر والإحسان ، ذكر الإخبار عن استعمال الله جل وعلا أهل الطاعة بطاعته (٢/٣٢ رقم: ٣٢٦) بهذا اللفظ. وصحَّح البوصيري إسناده في "الزوائد" (١/٤٤)، وهو حديث حسن - إن شاء الله -؛ في إسناده: الْجَرَّاحُ بْنُ مَلِيحٍ الْحِمْصِيُّ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وهو صدوق كما قال الذهبي في "من تكلم فيه وهو موثق" (ص: ٥٧) طبعة مكتبة المنار - الزرقاء، ووفي إسناده كذلك: بَكْرُ بْنُ زُرْعَةَ الْخَوْلَانِيُّ، أورده ابن حبان في "الثقات" (٤/٧٥)، وقد روى عنه ثلاثة من الثقات، ويشهد لمعناه حديث: "لا تزال طافة من امتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله".

(٣) انظر: مفتاح دار السعادة (١/٤٥١) بتصرف.

الوجهة في جزئية من الجزئيات أو فرع من الفروع لم يكن حاكمًا ولا استقام أن يكون مقتدىً به فيما حاد فيه عن صوب الشريعة البتة)(١).

وينبغي أن نسجل هنا أمرًا مهمًّا، وهو أن الكُتب لا يمكن لأحد الاستغناء بها عن ملازمة العلماء والأخذ عنهم، ولو قرأ في المسألة الواحدة حِملَ بعير! فإن الغالب على من أخذوا العم عن الكتب فقط: سوء الفهم، والانحراف الفكري، ووضع النصوص في غير مواضعها، وهل ضلت الخوارج وأشباههم إلا من جَرَّاء اكتفائهم بالنصوص وانعزالهم عن العلماء؟! ويدل على ذلك ما يلي:

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ - ﷺ- ذَاتَ يَوْمٍ، فَنَظَرَ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ: "**هَذَا أَوَانُ الْعِلْمِ أَنْ يُرْفَعَ**"، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ: أَيُرْفَعُ الْعِلْمُ يَا رَسُولَ اللهِ وَفِينَا كِتَابُ اللهِ، وَقَدْ عَلَّمْنَاهُ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّكَ مِنْ أَفْقَهِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ**"، ثُمَّ ذَكَرَ ضَلَالَةَ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ، وَعِنْدَهُمَا مَا عِنْدَهُمَا مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَقِيَ جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ شَدَّادَ بْنَ أَوْسٍ بِالْمُصَلَّى، فَحَدَّثَهُ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ فَقَالَ: صَدَقَ عَوْفٌ، ثُمَّ قَالَ: " وَهَلْ تَدْرِي مَا رَفْعُ الْعِلْمِ؟ " قَالَ: قُلْتُ: لَا أَدْرِي. قَالَ: "ذَهَابُ أَوْعِيَتِهِ"(٢). وفي رواية الدارمي: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ- أَنَّهُ قَالَ: «خُذُوا الْعِلْمَ قَبْلَ أَنْ يَذْهَبَ». قَالُوا: وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَفِينَا كِتَابُ اللَّهِ؟ قَالَ: فَغَضِبَ، ثُمَّ قَالَ: «ثَكِلَتْكُمْ

(١) انظر: الاعتصام للشاطبي (٢/٨٦٠).

(٢) أخرجه أحمد في "مسنده" (١١/٥٨٠٢) برقم: (٢٤٦٢٣) بهذا اللفظ، والبزار في "مسنده" (٧/١٧٥) برقم: (٢٧٤١) بنحوه مختصرا. والنسائي في "الكبرى" كتاب العلم ، كيف يرفع العلم (٥/٣٩٢) برقم: (٥٨٧٨) بنحوه، والطحاوي في "شرح مشكل الآثار"، باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله عليه السلام في رفع العلم عن الناس وقبضه منهم (١/٢٧٧) برقم: (٣٠١-٣٠٣) بنحوه مختصرا، وابن حبان في "صحيحه" كتاب السير، ذكر وصف الضلالة التي كان يتخوفها ﷺ على أمته (١٠/٤٣٣) برقم: (٤٥٧٢) بنحوه، وفي كتاب التاريخ، ذكر خبر ثان يصرح بوصف رفع العلم الذي ذكرناه قبل (١٥/١١٥) برقم: (٦٧٢٠) بنحوه مختصرا. والطبراني في "الكبير" (١٨/٤٣) برقم: (٧٥) بنحوه مختصرا. والحاكم في "مستدركه" كتاب العلم، العلم والإيمان مكانهما من ابتغاهما وجدهما (١/٩٨) برقم: (٣٣٦) بنحوه. وقال الحاكم: (حديث صحيح، وقد احتج الشيخان بجميع رواته).

أُمَّهَاتُكُمْ! أَوَ لَمْ تَكُنِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمْ شَيْئًا؟ إِنَّ ذَهَابَ الْعِلْمِ أَنْ يَذْهَبَ حَمَلَتُهُ، إِنَّ ذَهَابَ الْعِلْمِ أَنْ يَذْهَبَ حَمَلَتُهُ»(١).

وقال الإمام الشافعي: (مَنْ تَفَقَّهَ مِنْ الْكُتُبِ ضَيَّعَ الْأَحْكَامَ)(٢). وقال الإمام النووي: (قَالُوا: وَلَا يَأْخُذُ الْعِلْمَ إلَّا مِمَّنْ كَمُلَتْ أَهْلِيَّتُهُ وَظَهَرَتْ دِيَانَتُهُ وَتَحَقَّقَتْ مَعْرِفَتُهُ وَاشْتَهَرَتْ صِيَانَتُهُ وَسِيَادَتُهُ. قالوا وَلَا تَأْخُذْ الْعِلْمَ مِمَّنْ كَانَ أَخْذُهُ لَهُ مِنْ بُطُونِ الْكُتُبِ مِنْ غَيْرِ قِرَاءَةٍ عَلَى شُيُوخٍ أَوْ شَيْخٍ حَاذِقٍ فَمَنْ لَمْ يَأْخُذْهُ إلَّا مِنْ الْكُتُبِ يَقَعُ فِي التَّصْحِيفِ وَيَكْثُرُ مِنْهُ الْغَلَطُ وَالتَّحْرِيفُ. قالوا: وَلَا يَحْفَظُ ابْتِدَاءً مِنْ الْكُتُبِ اسْتِقْلَالًا بَلْ يُصَحِّحُ عَلَى الشَّيْخِ كَمَا ذَكَرْنَا فَالِاسْتِقْلَالُ بِذَلِكَ مِنْ أَضَرِّ الْمَفَاسِدِ)(٣). وفي هذه النصوص إشارة إلى أن المثقفين بالثقافة الدينية الذين قرأوا الكتب بأنفسهم، أو على أقرانهم، فهؤلاء لا يوثق بعلمهم؛ لأن العلم الشرعي لا بد فيه من التلقي على أيدي العلماء والشيوخ، ولا يكفي أخذه من الكتب، أو أن يأخذه طالب علم عن طالب علم مثله، بل الصحيح أن يأخذه طالب العلم عن شيخه.

(١) أخرجه الدارمي في "سننه" في المقدمة، باب في ذهاب العلم (٣٠٨/١ رقم ٢٤٦)، بسندٍ فيه حجاج بن أرطاة، وهو ضعيف، لكن يتقوى بحديث عوف بن مالك السابق.
(٢) انظر: مقدمة المجموع للنووي (٣٨/١).
(٣) انظر: مقدمة المجموع للنووي (٣٦/١ و٣٨) بتصرف.

المطلب الرابع: بناء الفكر المسلم على التوازن الوسطية

تعرف الوسطية بأنها: (سلوك محمود يعصم صاحبه من الانزلاق إلى طرفين متقابلين، أو متفاوتين، تتجاذبهما رذيلتَا الإفراط والتفريط، سواء في ميدان ديني أو دنيوي. أو هي: اتخاذ موقف معتدل بين طرفين، وعدم الميل إلى طرف دون آخر)(١).

و(الوسطية سمة ثابتة بارزة في كل باب من أبواب الإسلام: في الاعتقاد، والتشريع، والتكليف، والعبادة، والشهادة والحكم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، والأخلاق والمعاملة، وكسب المال وإنفاقه، ومطالب النفس وشهواتها. ولا تخرج معاني الوسطية عن: العدل والفضل والخيرية، والنِّصف والبينية، والتوسط بين طرفين، فقد استقر عند العرب أنهم إذا أطلقوا كلمة "الوسط" أرادوا معاني: الخير والعدل والنّصَفَة، والجودة والرفعة والمكانة العالية(٢). ولا يصح إطلاق مصطلح (الوسطية) على أمر إلا إذا توفرت فيه صفتان: ١- الخيرية، أو ما يدل عليها. ٢- البينية، سواء أكانت حسية أو معنوية. كما يقصد بالتوازن في الشريعة الإسلامية: النظر في كل الجوانب، وعدم طغيان جانب على آخر، وذلك باجتناب الغلو والجفاء)(٣).

هذه الوسطية لها معالم وأصول تقوم عليها في الكتاب والسُّنة، فالآية التي نتيه فخرًا بأنها نزلت في أمة الإسلام ونبي الإسلام - ﷺ-، هي الآية التي ذكر الله فيها هذه الصفة العظيمة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وسطًا أي: عدولًا خيارًا، والخيار بمعنى الأفاضل، والعدل: وضع الشيء في محله، والوسط في هذا الموضع كما قال الطبري: هو الوسط الذي بمعنى الجزء الذي هو بين الطرفين. وإنما وصفهم الله تعالى بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه، غلو النصارى الذين غلوا بالترهب وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه

---

(١) انظر: معجم مصطلحات العلوم الشرعية، إشراف مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، الرياض (١٧٧٤/٤).

(٢) قال ابنُ فارس: «وَسَطَ: يدل على العدل والنّصَف، وأعدل الشيء: أوسطه ووسطه، ويقولون: ضربتُ وَسَطَ رأسه بفتح السين، ووَسْط القوم بسكونها، وهو أوسطهم حَسَباً، إذا كان في واسطة قومه وأرفعهم محلاً» (معجم مقاييس اللغة ١٠٨/٦).

(٣) انظر: الوسطية من أبرز خصائص هذه الأمة، بقلم:عبد الحكيم بن محمد بلال، مقال منشور بمجلة البيان، (العدد ١١٤)، صفر - ١٤١٨هـ، يونيو - ١٩٩٧م، (السنة: ١٢)، (ص: ٤٨) بتصرف.

تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم وكفروا به؛ ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها(١).

قال ابن القيم: (فدِيُن الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وخير الناس النَّمَط الأوسط الذين ارتفعوا عن تقصير المفَرِّطين ولم يلحقوا بِغُلُوِّ المعتدين، وقد جعل الله . سبحانه . هذه الأمة وسطاً وهي الخيار العدل، لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجور، والتفريط، والآفات إنما تتطرق إلى الأطراف والأوساط محمية بأطرافها؛ فخيار الأمور أوساطها)(٢).

ومن أدلة الوسطية في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان: ٦٧]، فعباد الرحمن لا هم بالبخلاء الذين يمسكون ما في أيديهم ويمنعون حق الله وحق ذوي القربى وغيرهم، ولا هم بالمسرفين الذين يبالغون في الإعطاء فَيَضِيع أهلوهم، ويضيعون أنفسهم، بل هم (وسط بين الإسراف والتقتير والتبذير والبخل، فهم في حياتهم نموذج يقتدى به في القصد والاعتدال والتوازن. وذلك لأن الإسراف والتقتير كلاهما مفسد لحياة الأفراد والجماعات والأمم، لأن الإسراف تضييع للمال في غير محله. والتقتير إمساك له عن وجوهه المشروعة، أما الوسط والاعتدال في إنفاق المال، فهو سمة من سمات العقلاء الذين على أكتافهم تنهض الأمم، وتسعد الأفراد والجماعات)(٣) .

أما سُنَّة النبي ﷺ فإنها حافلة بالاهتمام بالوسطية، ونأخذ منها مثالين راقيين لا تجد لهما تكرارًا في أي مذهب أو فلسفة أو قانون بشري:

المثال الأول: عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ، قَالَ: آخَى النَّبِيُّ - ﷺ- بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ؟ قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ: سَلْمَانُ قُمِ الآنَ، فَصَلَّيَا فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: **إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**، فَأَتَى النَّبِيَّ - ﷺ-، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ-: «صَدَقَ

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/٦٢٦-٦٢٧).
(٢) انظر: إغاثة اللهفان لابن القيم (١/٣٣٠) طبعة عالم الفوائد.
(٣) انظر: التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي (١٠/٢١٩).

سَلْمَانُ»(١). فَهِمَ ذلك سلمانُ من العقيدة التي دَانَ لله بها، ومن الشريعة التي يفقه معانيها ويدرك مراميها، فنطق بما صدَّقه عليه النبي – ﷺ–.

المثال الثاني: عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –، قَالَ: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ – ﷺ–، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ – ﷺ–؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ– إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»(٢). إنه تَوَسُّطٌ بين الدنيا والآخرة، تَوَسُّطٌ بين حق الرَّب سبحانه، وبين حق الإنسان، توسط بين الربانية والإنسانية(٣).

مظاهر الوسطية في الشريعة الإسلامية:

وبعد هذه الأدلة الموجزة من القرآن والسُّنة فَلْنُعَرِّجْ قليلًا على بعض مظاهر الوسطية في شريعة الإسلام، وهذه المظاهر نظرية وعملية، تربوية وسلوكية، نذكر منها:

١– الوسطية في العبادات والشعائر: في الصلاة، علَّمنا ربنا سبحانه أن قراءة القرآن لا تكون بصوت مرتفع يشوش على المحيطين بنا، ولا بصوت خفيض لا يسمعه أحد؛ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، والصلاة هنا بمعنى القراءة، وهذا ما علَّمه النبي ﷺ لأصحابه، أن النبيَّ – ﷺ– خَرَجَ ليلةً فإذا هو بأبي بكر يُصلِّي يَخْفِضُ من صوته، قال: ومرَ بعمر بن الخطَاب وهو يُصلّي رافعاً صوته، قال: فلما اجتمعا عندَ النبيَّ – ﷺ– قال النبي – ﷺ–: "**يا أبا بكر، مررتُ بكَ وأنت تُصلّي تَخْفِضُ صوتَك**" قال: قد أسمعتُ من ناجيْتُ يا رسولَ الله، قال: وقال لعمر: "**مررتُ بك**

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع (٣٨/٣) برقم: (١٩٦٨) بهذا اللفظ، وأيضًا في كتاب الأدب، باب صنع الطعام والتكلف للضيف (٣٢/٨) برقم: (٦١٣٩) بمثله.

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، (٢/٧) برقم: (٥٠٦٣).

(٣) انظر: هذه شريعتنا، د. شهاب الدين محمد أبو زهو، دار الهدى، الإسكندرية، مصر، ١٤٣٢هـ – ٢٠١٠م، (ص:٩٥–١١١) بتصرف واسع.

وأنتَ تُصلّي رافعاً صوتك"، قال: فقال: يا رسولَ الله، أُوقظُ الوَسْنان، وأطْرُدُ الشيطان، – فقال النبي – ﷺ–: "**يا أبا بكر، ارفَعْ مِن صَوتك شيئاً**"، وقال لعمر: "**اخْفِضْ مِن صوتك شيئاً**"(١).

الوسطية في الدعاء بين أمور الدنيا والآخرة: ونورد هنا نموذجين من أدعية القرآن الكريم والنبي – ﷺ– يدلان على ذلك:

الـــــــدعاء الأول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠٢]، وحسنة الدنيا: التوفيق للطاعة، والزوجة الصالحة، والرزق، والقناعة، والأمن، والصحة. أما حسنة الآخرة: فدخول الجنة، ورضوان الله تعالى، ورفقة النبي – صلى الله عليه وسلم(٢). وقد ورد في الحديث ما يدل على أن النبي – ﷺ– كان كثيرًا ما يدعو بهذا الدعاء الطيب، وكأنه عليه الصلاة والسلام يشير للمسلمين أن يجعلوه شعارًا لهم ليعلمهم الوسطية في أمور حياتهم كلها وينبههم إليها في جميع أوقاتهم، فعَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنُ صُهَيْبٍ قَالَ: سَأَلَ قَتَادَةُ أَنَسًا: أَيُّ دَعْوَةٍ كَانَ يَدْعُو بِهَا النَّبِيُّ – ﷺ– أَكْثَرَ؟ قَالَ: كَانَ أَكْثَرُ دَعْوَةٍ يَدْعُو بِهَا يَقُولُ: "**اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**". قَالَ: وَكَانَ أَنَسٌ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدَعْوَةٍ دَعَا بِهَا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدُعَاءٍ دَعَا بِهَا فِيهِ(٣). وهذا الدعاء

(١) أخرجه أبو داود في "سننه" كتاب الصلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل (٥٠٩/١) برقم: (١٣٢٩) بهذا اللفظ، والترمذي في "جامعه" أبواب الصلاة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في القراءة بالليل (٤٦٥/١) برقم: (٤٤٧) بنحوه مختصرا، وابن خزيمة في "صحيحه") كتاب الصلاة، باب ذكر صفة الجهر بالقراءة في صلاة الليل (٣٣١/٢) برقم: (١١٦١) بنحوه. وابن حبان في "صحيحه" كتاب الرقائق ، ذكر البيان بأن قراءة المرء بين القراءتين كان أحب إلى رسول الله ﷺ من الجهر والمخافتة جميعا بها (٦/٣) برقم: (٧٣٣) بنحوه. والحاكم في "مستدركه" كتاب صلاة التطوع ، تحريص قيام الليل (٣١٠/١) برقم: (١١٧٢) بنحوه. وقال الحاكم: "حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ".

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٥٥٨/١).

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب تفسير القرآن ، باب ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة (٢٨/٦) برقم: (٤٥٢٢) بمثله مختصرا، وأيضًا في كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ ربنا آتنا في الدنيا حسنة (٨٣/٨) برقم: (٦٣٨٩) بمثله مختصرا. ومسلم في "صحيحه" كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء باللهم آتنا فِي الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة (٦٨/٨) برقم: (٢٦٩٠) بهذا اللفظ.

نظير قوله تعالى عن قارون لما نصحه قومه: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

الدعاء الثاني: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ- يَقُولُ: **"اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ"**(١)، قال الشوكاني: (هذا الحديث من جوامع الكلم لشموله لصلاح الدين والدنيا، ووصف إصلاح الدين بأنه عصمة أمره لأن صلاح الدين هو رأس مال العبد وغاية ما يطلبه، ووصف إصلاح الدنيا بأنها مكان معاشه الذي لا بد منه في حياته، وسأله إصلاح آخرته التي هي المرجع وحولها يدندن العباد، وقد استلزم ذلك سؤال إصلاح الدين؛ لأنه إذا أصلح دين الرجل فقد أصلح له آخرته التي هي دار معاده، وسأله أن يجعل الحياة زيادة له في كل خير لأن من زاده الله خيرًا في حياته كانت حياته صلاحًا وفلاحًا، وسأله أن يجعل له الموت راحة له من كل شر لأنه إذا كان الموت دافعًا للشرور قاطعًا لها ففيه الخير الكثير للعبد، ولكنه ينبغي له أن يقول: "اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي" كما علمنا رسول الله - ﷺ- فإنه يشمل كل أمره، ومعلوم أن من لم يكن في حياته إلا الوقوع في الشرور فالموت خير له من الحياة وراحة له من محنها)(٢).

وكان رسول الله - ﷺ- يؤكد في تعاليمه النبوية القولية والفعلية على تطبيق مبدأ الوسطية في جميع شئون الحياة، حتى شمل ذلك جانب العادات التي يمارسها المسلم يوميًّا، مثل: الأكل والشرب واللبس والتصدق، فعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُوا، [وَاشْرَبُوا]، وَتَصَدَّقُوا، وَالْبَسُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ، وَلَا مَخِيلَةٍ**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٨/٨١) برقم: (٢٧٢٠).

(٢) تحفة الذاكرين للشوكاني (ص: ٤٢٣).

(٣) أخرجه النسائي في "المجتبى" كتاب الزكاة، باب الاختيال في الصدقة (١/٥١٣) برقم: (٢/٢٥٥٨) بهذا اللفظ. وابن ماجه في "سننه" أبواب اللباس، باب البس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة (٤/٦٠٠) برقم: (٣٦٠٥) بنحوه. وأحمد في "مسنده" (٣/١٤٠٨) برقم: (٦٨٠٩) بنحوه، و(٣/١٤١٠) برقم: (٦٨٢٣) بنحوه مطولا. والحاكم في "مستدركه" كتاب الأطعمة، إن الله =

وبناءً على ما سبق فإن (التربية التي نحتاجها اليوم هي التي تأخذ الإسلام جملة وتفصيلاً، وتراعي شخصية الفرد بجميع جوانبها وأبعادها، مع التوازن في تربية الجوانب المختلفة: العقلية، والمعرفية، والوجدانية، كما توازن أيضاً في رعاية الجانب الواحد، كالجانب العقلي مثلاً، وهذا بالنسبة للفرد.

وعلى صعيد المجتمع: ينبغي ألا تكون التربية نُخْبَوية تخص فئة من الناس دون غيرهم، وتهمل بقية الفئات، كما ينبغي أن تتكامل كل المؤسسات التربوية وتتظافر جهودها، وأن تتكامل الجهود داخل المؤسسة التربوية الواحدة، وكذلك أن تتكامل في استخدام الوسائل التربوية. ومما يعين على ذلك: التفكير، والتخطيط، والترتيب للعملية التربوية، ووضع الأهداف الواضحة المنضبطة بالضوابط الشرعية مع المراجعة المستمرة؛ لتلافي الأخطاء، وألا تكون التربية مجرد استجابة لردود الأفعال.

ومما يجب التنبه له: أن التوازن والتكامل لا يعني أن يحمل كل شخص قدراً متساوياً من كل جانب؛ وذلك لاختلاف الأشخاص في القدرات والمواهب، ولحاجة الأمة إلى أبواب كثيرة تستدعي أن تُعنى بكل جانب فئةٌ من الفئات، كما لا يعني التوازن: ترك التخصص. وجدير بالذكر: أن فهم الوسطية تزول به إشكالات كثيرة، يكثر السؤال عنها بسبب عدم فهم الوسطية، كالتوفيق بين: العلم، والعبادة، والدعوة، والجهاد ... إلخ)[1].

=تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده (٤ / ١٣٥) برقم: (٧٢٨١) بنحوه مطولا. وقال الحاكم: "حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ"، ووافقه الذهبي. وام بين المعكوفين ليس عند النسائي.

(١) انظر: الوسطية من أبرز خصائص هذه الأمة، بقلم:عبد الحكيم بن محمد بلال، مقال منشور بمجلة البيان، (العدد ١١٤)، صفر – ١٤١٨هـ، يونيو – ١٩٩٧م، (السنة: ١٢)، (ص: ٤٨) بتصرف.

المطلب الخامس: لزوم جماعة المسلمين والانتماء إليها وعدم الشذوذ عنها

إن وحدة الأمة منهجًا وفكرًا وعقيدةً من الأمور الحتمية الواجبة، لا خيار للمسلمين في تركها، ولا يجوز لهم إهمالها، فقد قال الله تعالى: {وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ} [سورة الأنفال:٤٦]، بل إن هذه الوحدة من أُولَى الأولويات لأنه لا قيام للأمة المسلمة ولا تمكين لها إلا بائتلافها ووحدتها للدفاع عن معالم الدين وحرماته، قال تعالى: {هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ} [سورة الأنفال:٦٣]، (ومما لا شك فيه أن هذه الصورة للأمة التي أرادها الله تعالى مغايرة تمامًا للواقع الحالي، فقد تفرقت بالمسلمين السُّبل، وأصبحت عقائدهم شتى بعد أن كانت واحدة، فأفْرَزَ هذا الواقع الأليم الذل والمهانة والفشل، وهو الذي أطمع في هذه الأمة أعدائها فحَلَّ الجهلُ بفِقْهِ الخلاف، وحَلَّ الحوارُ والعنف محلَّ الحكمة والموعظة الحسنة، وتَفَشَّى التكفيرُ في المسائل الاجتهادية التي تقتضي الصفحَ والوئام، فاستُبيحت الدماء في مسألةٍ غاية ما فيها أن القائل بها إما مجتهد مخطئ فلَهُ أجرٌ واحد، أو مجتهدٌ على حق فلَهُ أجران)(١).

و(فضلًا عن كون الإسلام مشحون بالنصوص المحذرة من الفرقة الداعية الى الوحدة كان بالمقابل أسباب كثيرة للانفصال والتفرق، لعل أهمها بعد الأمة عن الكتاب والسُّنة، والجهل بالإسلام وعقائده، وضعف التربية الاسلامية الصحيحة الداعية الى أن ننظر بمنظار الإسلام لا بمنظارنا إلى الاسلام، فابتعدنا عن الطريق المستقيم إلى طرق مائلة كثيرة وتمسك كل واحد منا بواحدة منها، ونسينا ما معنا من الحق وزهدنا فيه، وبدلًا من أن نبحث في أسباب هذا البعد وما وصلنا اليه من الحال، انشغل كل منا بأخيه وما يحمل من معتقد، لنقف اليوم أمام صورة مشوهة عن المسلم الذي أراد الله وعن الأمة التي أراد، هذا فضلًا عن أن كلًّا منا إنْ لم يمسك الحق كله كان بيده طرفه أو شيئ منه)(٢).

---

(١) انظر: "الضوابط العقدية ودورها في معالجة الفُرقة الفكرية للمسلمين" رسالة ماجستير مقدمة: إلى مجلس كلية أصول الدين –الجامعة الإسلامية– بغداد– العراق – قسم العقيدة الإسلامية – للباحث/ نور شاكر الكبيسي، عام ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م، (ص: ب – ج).

(٢) انظر: "الضوابط العقدية ودورها في معالجة الفُرقة الفكرية للمسلمين"، (ص: أ – ب).

ومن الآيات الدالة على لزوم جماعة المسلمين وعدم الشذوذ عنها ما جاء في قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ} [سورة لقمان:١٥]؛ فَدَلَّ أَمْرُهُ بِاتِّبَاعِهِمْ عَلَى إِمْكَانِ اتِّفَاقِهِمْ وَوُجُوبِ إِجْمَاعِهِمْ، ثُمَّ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ مُخَالَفَتِهِمْ فَقَالَ: {وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا} [سورة النساء:١١٥]. فَصَارَ خِلَافُهُمْ مَحْظُورًا، وَأَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ} [سورة آل عمران:١٠٣]، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَجْتَمِعُونَ إِلَّا عَلَى حَقٍّ فَقَالَ: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [سورة آل عمران:١١٠] الْآيَةَ(١).

وقال تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} [سورة الأنعام:١٥٩]. (ولا يراد بالافتراق مطلق الافتراق إذ إنّ الخلاف من زمان الصحابة الى الآن واقع في المسائل الاجتهادية، وانما يراد به الافتراق المشعر بالعداوة والبغضاء وتفريق القلوب. وقد يكون الافتراق بسبب أمر دنيوي، ولكن افتراق الأمة لا يكون الا بسبب الابتداع في الشرع على الخصوص(٢). فالتفرق ليس معناه مجرد الاختلاف في الآراء وما إلى ذلك، فالاختلاف هو المرحلة الموطئة للتفرق والتناحر إذا اشتد الاختلاف، فعاقبة الاختلاف والتنازع التفرق وتشتت الشمل)(٣).

ومن الأحاديث النبوية الواردة في الحث على لزوم جماعة المسلمين وعدم الشذوذ عنها، ما يلي:

ما ورد أن الأمة معصومة في مجموعها من الانحراف؛ إذْ دعا النبي – ﷺ– ربَّه تعالى بذلك فأجابه، كما في الحديث عَنْ أَبِي بَصْرَةَ الْغِفَارِيِّ صَاحِبِ رَسُولِ اللهِ – ﷺ–، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – ﷺ– قَالَ: "**سَأَلْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يَجْمَعَ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ فَأَعْطَانِيهَا**"(٤). وَقَالَ النَّبِيُّ – ﷺ –: "**لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ**"(١).

(١) انظر: الحاوى الكبير للإمام أبي الحسن علي بن محمد البصري، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، طبعة دار الفكر – بيروت، (١٠٧/١٦).

(٢) ينظر: الاعتصام (٧٠٠/٢ –٧٠١).

(٣) انظر: "الضوابط العقدية ودورها في معالجة الفُرقة الفكرية للمسلمين"، (ص: ١٠ –١١).

(٤) مسند أحمد ط الرسالة (٢٠٠/٤٥). وهذه الجملة الكريمة لها شاهد من حديث ابن عمر عند الترمذي (٢١٦٧)، والحاكم (١١٦/١). ولفظه عند الحاكم: «لَا يَجْمَعُ اللَّهُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ =

=أَبَدًا، وَيَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ هَكَذَا، فَاتَّبِعُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ، فَإِنَّهُ مَنْ شَذَّ شَذَّ فِي النَّارِ». وآخر من حديث كعب بن عاصم الأشعري عند ابن أبي عاصم في "السنة" (٨٢) و (٩٢). وثالث عن ابن عباس عند الحاكم (١/١١٦). «لَا يَجْمَعُ اللَّهُ أُمَّتِي – أَوْ قَالَ هَذِهِ الْأُمَّةَ – عَلَى الضَّلَالَةِ أَبَدًا وَيَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ». وعن الحسن مرسلاً بسند رجاله ثقات عند الطبري (١٣٣٧٣). وعن أبي مسعود موقوفاً عند ابن أبي عاصم (٨٥) بسند جيد.

(١) ورد هذا الحديث مرفوعًا إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– عن عدة من الصحابة منها حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–: "ما كان الله ليجمع هذه الأمة على الضلالة". الحديث. رواه الحاكم في المستدرك في العلم (١/ ١١٦)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة (٤/ ٤٦٦ رقم ٢١٦٧)، وابن أبي عاصم في السنة، باب ما ذكر عن النبي من أمره بلزوم الجماعة (ص ٣٩ رقم ٨٠)، كلهم عن المعتمر بن سليمان، عن سليمان بن سفيان "وهو أبو سفيان المدني مولى طلحة بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ"، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دينار، عن ابن عمر. ومدار حديث عبد الله بن عمر على سليمان بن سفيان وهو ضعيف. وله شاهد آخر من حديث أنس رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كان يقول: "إن الله قد أجار أمتي أن تجتمع على ضلالة". رواه ابن أبي عاصم في السنة (ص ٤١ رقم ٨٣)، من طرق عن أنس، وكلها ضعيفة، ولكن بمجموعها حسن إن شاء الله. وله شاهد آخر من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم–: "لا يجمع الله أمتي على ضلالة، ويد الله مع الجماعة". أخرجه الحاكم في المستدرك في العلم (١/ ١١٦)، عن طريق عبد الرزاق، ثنا إبراهيم بن ميمون العدني لقد حدثني ابن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس وقال الحاكم: إبراهيم ابن ميمون، قد عدّله عبد الرزاق، وزاد الذهبي ووثقه ابن معين. وله شاهد آخر من حديث كعب بن عاصم الأشعري أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يقول: "إن الله تعالى قد أجار أمتي من أن تجتمع على ضلالة". رواه ابن أبي عاصم في السنة (ص ٤١ رقم ٨٢)، عن طريق سعيد بن زربي عن الحسن، عن كعب به، وسعيد بن زربي: منكر الحديث. والحديث بمجموع طرقه لا ينزل عن درجة الحسن لغيره، والله أعلم، وقال الترمذي عن حدبث ابن عمر: "حسن غَرِيب". وقد صححه ابن حبان (برقم ٧٢٢٦)، والحافظ في الفتح (٤/٧ – ٥). وقال: "وهو حديث حسن له طرق قد يرتقي بها إلى الصحة". وقال أيضًا في "موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر" (١/١٠٥) طبعة الرشد: "هو حديث مشهور المتن، له أسانيد كثيره من رواية جماعة من الصحابة بألفاظ مختلفة، فقد أخرجه أحمد من حديث أبي بَصْرَةَ الغفاري، وأبو داود من حديث أبي مالك الأشعري، والترمذي من حديث عبد اللَّه بن عمر، وابن ماجة من حديث أنس، والحاكم من حديث ابن عباس وغيره".

وعَنْ أَبِي الشَّعْثَاءِ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فَقُلْنَا لَهُ: اعْهَدْ إِلَيْنَا. فَقَالَ: «**عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَلُزُومِ جَمَاعَةِ مُحَمَّدٍ – ﷺ–، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَنْ يَجْمَعَ جَمَاعَةَ مُحَمَّدٍ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَإِنَّ دَيْنَ اللَّهِ وَاحِدٌ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوُّنَ فِي دَيْنِ اللَّهِ، وَعَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَاصْبِرُوا حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، وَيُسْتَرَاحُ مِنْ فَاجِرٍ**»(١).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود قَالَ: خَطَّ رَسُولُ اللهِ – ﷺ– خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللهِ مُسْتَقِيمًا. قَالَ: ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: **هَذِهِ السُّبُلُ، لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**، ثُمَّ قَرَأَ: {وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ} [سورة الأنعام:١٥٣](٢).

---

(١) أخرجه موقوفًا على أبي مسعود: ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٥٠٨/٧ رقم ٣٧٦١٥) طبعة الرشد، والطبراني في "الكبير" (٢٤٠/١٧ رقم ٦٦٦)، والحاكم في "مستدركه" في كتاب الفتن والملاحم واللفظ له (٥٥٢/٤ رقم ٨٥٤٥) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وقال الاحفظ في "التلخيص الحبير" (٢٩٦/٣) طبعة قرطبة: "إسناده صحيح، ومثله لا يقال من قِبَل الرأي".

(٢) أخرجه **الدارمي** في "مسنده" مقدمة المؤلف ، باب في كراهية أخذ الرأي (٢٨٥/١) برقم: (٢٠٨) بنحوه. **وأحمد** في "مسنده" (٩٥٨/٢) برقم: (٤٢٢٥) بمثله، و(١٠٢٠/٢) برقم: (٤٥٢٣) بهذا اللفظ، **والطيالسي** في "مسنده" (١٩٧/١) برقم: (٢٤١) بنحوه. **وسعيد بن منصور** في "سننه" كتاب التفسير، قوله تعالى وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل (١١٢/٥) برقم: (٩٣٥) بنحوه. **والبزار** في "مسنده" (٩٩/٥) برقم: (١٦٧٦) بنحوه مختصرا، و(١١٣/٥) برقم: (١٦٩٣) بنحوه.، و(١٣١/٥) برقم: (١٧١٧) بنحوه، و(٢٥١/٥) برقم: (١٨٦٥) بنحوه. والنسائي في "الكبرى" كتاب التفسير ، قوله تعالى وأن هذا صراطي مستقيما (٩٥/١٠) برقم: (١١١٠٩) بنحوه مطولا، ورقم: (١١١١٠) بنحوه. **وابن حبان** في "صحيحه" المقدمة ، ذكر الإخبار عما يجب على المرء من لزوم سنن المصطفى ﷺ (١٨٠/١) برقم: (٦) بنحوه، وأيضًا في المقدمة، ذكر ما يجب على المرء من ترك تتبع السبل دون لزوم الطريق الذي هو الصراط المستقيم (١٨١/١) برقم: (٧) بمثله. **والحاكم** في "مستدركه" كتاب التفسير، شأن نزول آية يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا (٢٣٩/٢) برقم: (٢٩٥٦) بمثله. قال الحاكم: "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ". **وله شاهد عن جابر بن عبد الله** قَالَ : كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَّ خَطًّا هَكَذَا أَمَامَهُ ، فَقَالَ : هَذَا سَبِيلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَخَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ وَخَطَّيْنِ عَنْ شِمَالِهِ قَالَ : (هَذِهِ سُبُلُ الشَّيْطَانِ ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ). أخرجه ابن ماجه في "سننه" أبواب السنة، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ (٨/١) برقم: (١١) بمثله. وأحمد في =

وعن حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ، كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ- عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ**(١)»، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «**قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**» قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا؟ فَقَالَ: «**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**» قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**»، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**»(٢).

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: خَطَبَنَا عُمَرُ بِالجَابِيَةِ(٣) فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِينَا فَقَالَ: «**عَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالفُرْقَةَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الجَنَّةِ**(٤) **فَلْيَلْزَمُ الجَمَاعَةَ**»(٥).

="مسنده" (٣٢١٨/٦) برقم: (١٥٥١٠) بهذا اللفظ، وعبد بن حميد في "المنتخب من مسنده" (٣٤٥/١) برقم: (١١٤١) بمثله.

(١) **دَخَن**: أَيْ فَساد واختلاف، تَشْبِيهًا بِدُخَانِ الحَطَب الرَّطْب؛ لِمَا بينهم من الفساد الباطنِ تَحْتَ الصَّلاح الظَّاهِرِ. (انظر: النهاية لابن الأثير ١٠٩/٢).

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" في كتاب المناقب – باب علامات النبوة في الإسلام (١٩٩/٤ رقم٣٦٠٦).

(٣) **الْجَابِيَةُ**: قَرْيَةٌ بِدِمَشْقَ. (انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي ٩١/٢) طبعة دار صادر – بيروت، الثانية، ١٩٩٥ م.

(٤) **بُحْبُوحَة الْجَنَّةِ**: أي وسَطُها. يُقَالُ: تَبَحْبَح إِذَا تَمَكَّنَ وتوسَّط الْمَنْزِلَ وَالْمُقام. (انظر النهاية لابن الأثير ٩٨/١).

(٥) أخرجه الترمذي في "جامعه" أبواب الفتن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في لزوم الجماعة (٣٨/٤) برقم: (٢١٦٥) بهذا اللفظ)، وأحمد في "مسنده" (٤٥/١) برقم: (١١٥) بنحوه، (٦٤/١) برقم: (١٧٩) بنحوه، وابن حبان في "صحيحه" كتاب السير، ذكر الإخبار عما يجب على المرء من لزوم ما عليه جماعة المسلمين وترك الانفراد عنهم بترك الجماعات (٤٣٦/١٠) برقم: (٤٥٧٦) بنحوه، والحاكم في "مستدركه" كتاب العلم، خطبة عمر رضي الله عنه بالجابية =

وعَنْ أَبِي مالك الحارث الأشعري، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ–: «**آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ، السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَالجِهَادُ وَالهِجْرَةُ وَالجَمَاعَةُ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلاَمِ مِنْ عُنُقِهِ إِلاَّ أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ**(١) **فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا**(٢) **جَهَنَّمَ**»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ: «**وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللهِ الَّذِي سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ، عِبَادَ اللَّهِ**»(٣).

وعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ– أَنَّهُ قَالَ: «**ثَلَاثَةٌ لَا تَسْأَلْ عَنْهُمْ**(٤) – وعَدَّ منهم –: **رَجُلٌ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ، وَعَصَى إِمَامَهُ، وَمَاتَ عَاصِيًا**»(٥).

=(١١٣/١) برقم: (٣٨٦) بمثله. وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح غريب". وقال الحاكم: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي.

(١) **دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**: الِاسْتِغَاثَةُ عِنْدَ إِرَادَةِ الْحَرْبِ، كَانُوا يَقُولُونَ: يَا آلَ فُلَانٍ! فَيَجْتَمِعُونَ فَيَنْصُرُونَ الْقَائِلَ وَلَوْ كَانَ ظَالِمًا، فَجَاءَ الْإِسْلَامُ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ. (انظر: فتح الباري ٥٤٦/٦).

(٢) **الجُثَا**: جَمْع جُثْوَة بالضَّم، وَهُوَ الشَّيْءُ الْمَجْمُوعُ. (انظر النهاية لابن الأثير ٢٣٩/١).

(٣) أخرجه الترمذي في "جامعه" أبواب الأمثال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة (٥٤٤/٤) برقم: (٢٨٦٣) بهذا اللفظ. وأحمد في "مسنده" (٣٨١٤/٧) برقم: (١٧٤٤٣) بنحوه، (٤٠٠٣/٧) برقم: (١٨٠٧٩) بنحوه، (٥٤٢٩/١٠) برقم: (٢٣٣٧٧) بنحوه. وابن حبان في "صحيحه" كتاب التاريخ، ذكر تشبيه المصطفى ﷺ عيسى ابن مريم بعروة بن مسعود (١٢٤/١٤) برقم: (٦٢٣٣) بنحوه، والحاكم في "مستدركه" كتاب العلم، من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه (١ ١١٧) برقم: (٤٠٣) بمثله. وقال الترمذي: "حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ"، وقال الحاكم: "حديث صحيح" ووافقه الذهبي.

(٤) قال السندي: قوله: "لا تسأل عنهم" أي: فإنك لا تستطيع أن تعرف ما هم عليه من سوء الحال وقُبح المآل، وهذا كناية عن غاية شناعة حالهم. (انظر "حاشيته" بهامش "مسند أحمد" طبعة الرسالة (٣٦٩/٣٩ رقم ٣٣٩٤٤).

(٥) أخرجه أحمد في "مسنده" (٥٧٨٤/١١) برقم: (٢٤٥٧٥) بهذا اللفظ، والبزار في "مسنده" (٢٠٤/٩) برقم: (٣٧٤٩) بمثله، وابن حبان في "صحيحه" كتاب السير، ذكر التخصيص الثاني الذي يخص عموم الخطاب الذي ذكرناه قبل (٤٢٢/١٠) برقم: (٤٥٥٩) بنحوه. والطبراني في "الكبير" (٣٠٦/١٨) برقم: (٧٨٨) بمثله، والحاكم في "مستدركه" كتاب العلم، من فارق الجماعة واستذل الإمارة لقي الله ولا حجة له عند الله (١١٩/١) برقم: (٤١٠) بمثله. وقال الحاكم: " هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ؛ فَقَدِ احْتَجَّا بِجَمِيعِ رُوَاتِهِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وَلَا أَعْرِفُ لَهُ عِلَّةً".

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ – ﷺ– قَالَ: «**مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**»، وفي رواية أحمد: «**وَمَنْ مَاتَ مُفَارِقًا لِلْجَمَاعَةِ، فَقَدْ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**»(١). قوله: "مفارق للجماعة": أي المسلمين. وظاهِرُه سوادُ الناس، وما اجتمعوا عليه في الإمارة، وقيل: هم أهل العلم. بمعنى أن كل جماعة عَقَدَتْ عقداً يوافق الكتاب والسُّنة لا يجوز لأحد مفارقتهم فيه، فإنْ فارَقهم وخالفهم يموت على ما مات عليه أهل الجاهلية من الضلال. و"ميتة جاهلية"، أي: على حالة وهيئة الموت الجاهلي من كون أمرهم بلا إمام ولا خليفة يدبر أمرهم، وفرقة آرائهم. والميتة: الموت. – قاله السِّنْدِي–(٢).

وقد فهم الصحابة – رضوان الله عليهم – أن الانضمام تحت لواء الجماعة مع وجود بعض ما يكره الناس من الضيق – مثلًا – خير من الشذوذ عن الجماعة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّهُ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّهُمَا حَبْلُ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، وَإِنَّ مَا تَكْرَهُونَ فِي الْجَمَاعَةِ وَالطَّاعَةِ هُوَ خَيْرٌ مِمَّا تَسْتَحِبُّونَ فِي الْفُرْقَةِ**»(٣).

ومن روائع التعليمات النبوية الكريمة: تدريب المسلمين على الوحدة والائتلاف خمس مرات يوميًّا من خلال تَرَاصِّهم في الصفوف والحرص على استقامتها، فإذا هم فعلوا ذلك استقامت قلوبهم، وإذا هم قصروا وأساؤوا في تسوية الصفوف اختلفت قلوبهم، كما ورد بذلك الحديث الشريف: فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ– يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلَاةِ وَيَقُولُ: "**اسْتَوُوا، وَلَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ. لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**". قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ: فَأَنْتُمُ الْيَوْمَ أَشَدُّ اخْتِلَافًا!(٤). وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا قَرَأَ آيَةً، وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٢/٦) كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن برقم: (١٨٥١)، وأحمد في "مسنده" في مواضع كثيرة منها: (١١٧٥/٣) برقم: (٥٤٨٦).

(٢) انظر "حاشيته" بهامش "مسند أحمد" طبعة الرسالة (٢٨٥/٩-٢٨٦ رقم ٥٣٨٦).

(٣) تفسير الطبري (٦٤٨/٥) طبعة هجر.

(٤) أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الصلاة ، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول (٣٠/٢) برقم: (٤٣٢).

يَقْرَأُ خِلَافَهَا، فَجِئْتُ بِهِ النَّبِيَّ - ﷺ- فَأَخْبَرْتُهُ، فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَةَ، وَقَالَ: "**كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ، وَلَا تَخْتَلِفُوا؛ فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا، فَهَلَكُوا**"(١).

(إن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولا يزال فيها طائفة ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة؛ إذْ كانوا آخر الأمم فلا نبي - بعد نبيهم — بعدهم، ولا كتاب بعد كتابهم. وكانت الأمم قبلهم إذا بدلوا وغَيَّروا بعث الله نبيًا يبين لهم ويأمرهم وينهاهم، ولم يكن بعد محمد - ﷺ- نبي، وقد ضمن الله أن يحفظ ما أنزله من الذِّكْر، وأن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، بل أقام الله لهذه الأمة في كل عصر مَن يحفظ به دينه من أهل العلم والقرآن، وينفي به تحريف الغالين وانتحال المضلين وتأويل الجاهلين)(٢). **وقد بَيَّنَ النبي - ﷺ-** أن المسلم لا يحمل قلبُه إلا الإخلاص لله تعالى، والمناصحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فقال: "**ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ**(٣) **عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**"(٤). أي لا يحمل الغِل وَلَا يبْقى فِيهِ مَعَ هَذِه الثَّلَاثَة، فَإِنَّهَا تنفي الغِل والغش وفَسَادَ الْقلب وسَخَائِمه، فالمخلص لله: إخلاصُه يمْنَع

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الإشخاص والخصومات، باب ما يذكر في الإشخاص والخصومة بين المسلم واليهود (١٢٠/٣) برقم: (٢٤١٠) بنحوه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار (١٧٥/٤) برقم: (٣٤٧٦) بهذا اللفظ، (١٩٨/٦) كتاب فضائل القرآن، باب اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم برقم: (٥٠٦٢) بنحوه.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن وآخرين، دار العاصمة - السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م، (٣٩/٣).

(٣) **يُغِلُّ**: هُوَ مِنَ الْإِغْلَالِ: الْخِيَانَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَيُرْوَى : "يَغِلُّ" بِفَتْحِ الْيَاءِ، مِنَ الْغِلِّ وَهُوَ الْحِقْدُ وَالشَّحْنَاءُ: أَيْ لَا يَدْخُلُهُ حِقْدٌ يُزِيلُهُ عَنِ الْحَقِّ. وَرُوِيَ: "يَغِلُ" بِالتَّخْفِيفِ، مِنَ الْوُغُولِ: الدُّخُولُ فِي الشَّرِّ. وَالْمَعْنَى أَنَّ هَذِهِ الْخِلَالَ الثَّلَاثَ تُسْتَصْلَحُ بِهَا الْقُلُوبُ، فَمَنْ تَمَسَّكَ بِهَا طَهُرَ قَلْبُهُ مِنَ الْخِيَانَةِ وَالدَّغَلِ وَالشَّرِّ. (انظر: النهاية لابن الأثير ٣٨١/٣).

(٤) أخرجه ابن ماجه في "سننه" أبواب السنة، باب من بلغ علما (١٥٦/١ رقم: ٢٣٠)، وأحمد في "مسنده" (٥٠٥١/٩ رقم: ٢١٩٩١)، والطيالسي في "مسنده" (٥٠٣/١ رقم: ٦١٦)، وابن حبان في "صحيحه" كتاب العلم، ذكر رحمة الله جل وعلا من بلغ أمة المصطفى ﷺ حديثا صحيحا عنه (٢٧٠/١ رقم: ٦٧)، وأيضًا في كتاب الرقائق، ذكر وصف الغنى الذي وصفناه قبل (٤٥٤/٢ رقم: ٦٨٠)، والطبراني في "الكبير" (١٤٣/٥ رقم: ٤٨٩٠، و١٥٤/٥ رقم: ٤٩٢٥)، من حديث زيد بن ثابت، وقد قال الترمذي في "جامعه" (٣٣٠/٤ رقم٢٦٥٦): "حديث حسن".

غِلَّ قلبِه، ويُخْرِجُه ويُزيلُه جملَةً؛ لأنه قد انصرفتْ دواعي قلبِه وإرادته إِلَى مرضاة ربِّه، فَلم يبْق فِيهِ مَوضِع للغِلِّ والغش، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ} [سورة يوسف:٢٤]، فَلَمَّا أخلص لربِّه صَرَفَ عَنهُ دواعي السوء والفحشاء، فَانْصَرف عَنهُ السوءُ والفحشاء. وَلِهَذَا لَمَّا عَلِم إبليسُ أنه لَا سَبِيل لَهُ على أهل الإخلاص استثناهم مِن شِرْطَتِه الَّتِي اشترطها للغواية والاهلاك، فَقَالَ: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ} [سورة ص:٨٢-٨٣]، قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ} [سورة الحجر:٤٢]، فالإخلاص هُوَ سَبِيل الْخَلَاص، وَالْإِسْلَام هُوَ مركب السَّلامَة، والايمان خَاتم الأمان. وَقَوله: **"وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ"**، هَذَا أيضا منَافٍ للغِل والغش؛ فَإِن النَّصِيحَة لَا تُجَامِع الغِل إِذْ هِيَ ضِدّه، فَمَن نَصَحَ الأئمةَ والأُمة فقد بَرِئ من الغِل. وَقَوله: **"وَلُزُوم جَمَاعَتهمْ"**، هَذَا أيضًا مِمَّا يُطهر الْقلب من الغِل والغش؛ فَإِنَّ صَاحِبَه – لِلزُومه جمَاعَةَ الْمُسلمين – يُحب لَهُم مَا يحب لنَفسِهِ، وَيكرهُ لَهُم مَا يكره لَهَا، ويسوؤه مَا يسؤوهم، ويَسُرُّه مَا يَسُرُّهم. **وَهَذَا بِخِلَاف مَن انحاز عَنْهُم واشتغل بالطعن عَلَيْهِم وَالْعَيْب والذم لَهُم**، كَفِعْلِ الرافضة والخوارج والمعتزلة وَغَيرهم؛ فَإِن قُلُوبهم ممتلئةٌ غِلًّا وغشًّا، وَلِهَذَا تَجِد الرافضة أبعد النَّاس من الإخلاص، وأَغَشَّهم للأئمة والأُمة، وأشدَّهم بُعدًا عَن جمَاعَة الْمُسلمين، فَهَؤُلَاءِ أشدُّ النَّاس غِلًّا وغشًّا بِشَهَادَة الرَّسُولِ والأُمَّةِ عَلَيْهِم، وشهادتهم على أنفسهم بذلك، فإنهم لا يكونون قطّ إلا أعوانًا وظَهْرًا على أهل الإسلام، فأيُّ عَدُوٍّ قَامَ للْمُسلمين كَانُوا أعوان ذَلِك الْعَدو وبطانتَه، وَهَذَا أمْرٌ قد شَاهَدَتْهُ الأُمةُ مِنْهُم، وَمَن لَم يُشَاهده فقد سمع مِنْهُ مَا يُصِمُّ الآذانَ ويُشجي الْقُلُوب. وَقَوله: **"فَإِن دعوتهم تحيط من ورائهم"**، هَذَا مِن أحسن الْكَلَام وأوْجَزِه وأفخمِه مَعْنًى، شَبَّهَ دَعْوَة الْمُسلمين بالسُّور والسِّياج الْمُحِيط بهم، الْمَانِع من دُخُول عَدُوِّهم عَلَيْهِم، فَتلك الدعْوَة الَّتِي هِيَ دَعْوَةُ الإسلام – وهم داخلُوها – لَمَّا كَانَت سُورًا وسَياجًا عَلَيْهِم أخبر أن مَن لَزِم جمَاعَةَ الْمُسلمين أحاطت بِهِ تِلْكَ الدعْوَة الَّتِي هِيَ دَعْوَة الإسلام كَمَا أحاطت بهم، فالدعوة تَجْمع شَمَلَ الأُمة، وتَلُمُّ شَعَثَها، وتُحيط بهَا، فَمَن دَخَل فِي جماعتِها أحاطت بِهِ وشَمِلَتْه(١).

وإذا كانت تلك منزلة لزوم الجماعة وعدم الخروج عليها أو الشذوذ عنها فإن على كل مسلم صادق يحترم عقله ويعتز بإنسانيته وكرامته، ويخلص لدينه، ويريد العمل من أجل حمايته والتمكين له، أن يسير مع الجماعة وأن يلتزم بها، وألا يفارقها شعرة.

(١) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٢٧٧ – ٢٧٨).

الخاتمة

انتهى البحث بعد هذه الرحلة المباركة إلى النتائج والتوصيات التالية:

أولًا: النتائج:

– حفلت السُّنة المطهَّرَة بأحاديث كثيرةً تظهر اهتمامًا بالغًا برعاية الفكر المسلم وبنائه على أسس قويمة، وحمايته من الانحراف والشبهات التي تعصف بسلامة المجتمع المسلم وأمنه واستقراره، خاصة عند وقوع الأزمات العَقدية والفكرية ومواجهة الأفكار المضلِّلة.

– وضَعَتِ السُّنة النبوية منهجًا متميزًا فريدًا في الحث على صيانة الفكر المسلم وحِفْظه وحمايته من الانحراف بأشكاله كلها، وتحريم الجنايات عليه.

– عرف البحث بالمنهج النبوي في البناء الفكري بأنه: الطرائق النبوية المتبعة في بناء فكر المسلم، وفق منهج متكامل يتسم بالشمول والتوازن، ويتوافق مع العقل والفطرة والواقع، وصولًا إلى التصور الأمثل حول القضايا التي تشغل المسلم بتعقل وإنصاف ومرونة وانفتاح، ودرْءِ المفاسد عنه، وحمايتِه من الأهواء الْمُرْدية والضلالات المهلكة، وتحريف الغالِين وانتحال الْمُبطِلين، ومعالجة مظاهر انحرافه.

– أنَّ السُّنة النبوية في عملية بناء الفكر تعطي الأهمية الأولى للعقيدة والقيم الأخلاقية والأخوة الإنسانية، وتعتمد في تحقيق الفلاح للمجتمع ودَعْمِ وجَوْدَةِ قِيَمِه العليا على تكامل أدوار القِيَمِ والمؤسساتِ والأُسَر والمجتمع والدولةِ.

– وضَعَتِ السُّنة النبوية أهدافًا ودوافعَ يتميز من خلالها فكرُ المسلم وسلوكياتُه عن غير المسلم، فهو يهدف إلى تحقيق أقصى درجة من الانضباط بالقيم والفكر الإسلامي، ابتغاء الوصول إلى الغاية العظمى وهو وجود المجتمع المسلم المتكامل.

– وَضَعَتِ السُّنة النبوية مجموعة من الضوابط من أجل الوصول بفكر المسلم إلى الحالة الْمُثْلَى.

– اهتم النبي – ﷺ– بتعليم العقيدة للشباب وهم في بداية هذه المرحلة العُمُرية، وذلك لأن ما يتعلمه الشابُّ في بداية حياته يترسخ في عقله وفكره، ويتمكن من قلبه ووجدانه، ويتميز بالثبات معه حتى الممات.

– الكتاب والسُّنة اشتملا على أصول الدين وعلى براهين هذه الأصول، وذلك فقد حَفَلَتِ السُّنة النبوية بالكثير من الأحاديث التي تحمل توجيهاته – ﷺ– في التمسك بالكتاب والسُّنة والاعتصام بهما طلبًا لاستقامة الفكر، والسلامة من الانحراف، والنجاة من الضلال والاعوجاج.

– أهمية الرجوع إلى الكتاب والسُّنة في علاج المشكلات المستجدة، خاصة مشكلة الانحراف الفكري التي باتت أخطر ما يهدد الأمة في أمنها وشبابها؛ حيث في استفحل ضرر دعاة التشدد والغلو من ناحية، ودعاة الاستغراب والإلحاد واليسارية والعلمانية والليبرالية من ناحية أخرى.

– أهل البدع المفارقون لأهل السُّنة فقد تركوا الاعتصام بالكتاب والسُّنة، فأصابهم من الاختلاف والتفرق والتناقض والاضطراب بحسب تركهم للاعتصام بالكتاب والسُّنة.

– العلم النافع المبني على القرآن الكريم والسُّنة النبوية يُكسِب العقل رُشْدًا واتزانًا، والتفكير سلامةً واستقامةً، يورث القلب إيمانًا صادقًا ويقينًا راسخًا، وهذا كله يُكَوِّن أصلًا عظيمًا تنبني عليه الحقائق، وسَدًّا منيعًا تتكسر عنه الشبهات.

– بَيَّنَتْ لنا السُّنة النبوية أن العلم إنما يكون بالفقه فيه وفهم المراد منه، وليس مجرد جمع المعلومات أو حفظها؛ فإنه ما أُتِي المنحرفون فكريًّا إلا من قِبَل جهلهم بفقهِ ما حفظوه من نصوص!

– شَدَّدتِ السُّنة النبوية على أنه ينبغي على المسلم الذي يطلب العلم أن يلزم غَرْزَ العلماء الربانيين الثقات، ويتحرى التلقي عنهم لا سيما في أوائل الطلب، ويحذر حذرًا شديدًا من الاعتماد على الكتب وحدها في البداية؛ فإن هذا ينتهي بالطالب إلى أخطاء لا تحمد عقباها، علمأنه يشترط فيمن تجب ملازمته من العلماء أن يكون من أهل الاجتهاد والحكمة.

– أن العلماء والدعاة لهم دور كبير وتقع على عاتقهم مسؤولية عظمى في تصحيح الانحرافات الفكرية والتصدي لها، وهو ما يسفر عن وأد الانحرافات الفكرية في مهدها أو الحد من تفاقمها وسرعة انتشارها.

– شريعة الإسلام عقيدةً وخُلقًا وفكرًا وأحكامًا عملية، كلها تقوم على الوسطية؛ أي التوسط والتوازن بغير غلو ولا تقصير ولا طغيان ولا إخسار، فهذه الأمة المسلمة اختصها الله تعالى بأن جعلها وسطاً في أعمالها، ووسطاً في أفكارها، ووسطاً في دعوتها، مبعدةً عن كل ما يمكن أن يؤدي إلى الغلو في أحد الجانبين.

– كان رسول الله – ﷺ– يؤكد في تعاليمه النبوية القولية والفعلية على تطبيق مبدأ الوسطية في جميع شئون الحياة، حتى شمل ذلك جانب العادات التي يمارسها المسلم يوميًّا.

– أوضحت السُّنة النبوية أن المفهوم العام للتسامح لا يزيد على حسن المعاملة، والعيش بصورة ملائمة بين كافة المجتمعات مع الاختلاف الديني والفكري والثقافي، والتعايش بهذا المعنى بين أتباع الأديان المختلفة لا يرفضه الإسلام.

– سماحة الإسلام قولٌ وعمل، واقعٌ معاش، مبادئ لا تعرف لا تعرف أساليب الكيل بمكيالين، لأنها تطبَّق أحسن تطبيق في واقع الحياة، لأنها منهج ربانيٌّ وسَطٌ، شرعه الخالق المدبر لهذا الكون الذي يعلم ما يصلح له، وما ينفع ساكنيه، شرَعَه – عز وجل – ليطبَّق في حياة الناس.

– للتسامح أثر عظيمًا في تماسك المجتمع المسلم ووِحْدَتِه، والمحافظة على بقاء المحبة والتعاون والإخاء بين أفراده، وعليه عامل كبير في تقليل مادة النزاع وحسمها مع المخالِفين في العقيدة أو المذهب والتوجهات والأفكار، ووله كذلك دور مهم في نبذ العنف والتعصب والكراهية التي تعمي القلوب والبصائر.

– التسامح في الإسلام سبيل عظيم من أهم سُبُل التعايش بين البشر؛ خاصةً عند اختلاف الدين والعقيدة في البلد الواحد، حيث نجد بعض أتباع الديانات المختلفة يساكنون المسلمون ويعيشون بينهم تجمعهم رابطةُ البلد والإقامة والمواطَنة، ولذلك فقد أرسى النبي – ﷺ– دعائم التسامح مع غير المسلمين حتى يستقم أمر المجتمع ويَسْلَم مِن غوائل الفتنة.

– بيَّن لنا النبي – ﷺ– من خلال هديه الشريف فقه الاختلاف في الاجتهاد والرأي والفهم، وقبول ذلك دون تنازع ولا اختلاف.

– مما يساعد على التسامح وتبادل العذر فيما اختلف فيه: الاطلاع على اختلاف العلماء، ليعرف منه تعدد المذاهب، وتنوع المآخذ والمشارب، وأن لكل منهم وجهته وأدلته التى يستند إليها، ويقول عليها، وكلهم يغترف من بحر الشريعة وما أوسعه.

– تكاثرت الأحاديث النبوية الواردة في الحث على لزوم جماعة المسلمين وعدم الشذوذ عنها، والتي بَيَّنَت أن الأمة معصومة في مجموعها من الانحراف؛ إذْ دعا النبي – ﷺ– ربَّه تعالى بذلك فأجابه.

– أوضَحَتِ الأحاديث الكثيرة أن كل جماعة عَقَدَتْ عقداً يوافق الكتاب والسُّنة لا يجوز لأحد مفارقتهم فيه، فإنْ فارَقهم وخالفهم يموت على ما مات عليه أهل الجاهلية من الضلال.

– من روائع التعليمات النبوية الكريمة: تدريب المسلمين على الوحدة والائتلاف خمس مرات يوميًّا من خلال تَرَاصِّهم في الصفوف والحرص على استقامتها، فإذا هم فعلوا ذلك استقامت قلوبهم، وإذا هم قصروا وأساؤوا في تسوية الصفوف اختلفت قلوبهم.

ثانيًا: التوصيات:

ومن أهم التوصيات التي توصلت إليها في هذا البحث مايأتي:

– المبادرة إلى تعليم أصول العقيدة للجيل الناشئ في المراحل الأساسية من أعمارهم من أجل تحصين أفكارهم وحمايتها، والاجتهاد في توضيح مسائل العقيدة للنَّشْء بالوسائل التوضيحية المناسبة.

– الاهتمام بالقصص الايمانية من الكتاب والسُّنة وعرضها للنَّشْء بصورة تتوافق مع مستوياتهم العلمية والثقافية.

– رعاية الشباب وتَعاهُدُهم بالوصايا الإيمانية، وإيلاءُ هذا الأمر الأهمية القصوى، لما نراه من غزوٍ فكري وعقائدي يجتاح بلاد المسلمين.

– قيام مجموعة من الباحثين من تخصصات السُّنة النبوية وعلم النفس والاجتماع والتربية بجمع التطبيقات النبوية في جانب بناء الفكر وحمايته، والخروج ببرنامج نبوي متكامل برؤية معاصرة، تعمل الهيئات والمؤسسات والأفراد على تطبيقه وتنفيذه.

– الحرص على تحذير الشباب من ارتياد مواقع الفتن على وسائل التواصل أو الحياة العامة، أو الخوض في الشُّبَه والانحرافات.

– دعوة الباحثين والدارسين في مختلف التخصصات إلى الاهتمام بإجراء المزيد من الدراسات العلمية حول بناء الفكر وحمايته من الانحرف؛ حيث إنَّ تزايد نسبة الانحراف الفكري عند كثير من الشباب في زماننا يحتاج إلى الكثير من الدراسة المتعمقة والمتخصصة، لتحديد وضعها الحالي والنظرة المستقبلية.

– وضع مادة دراسية مناسبة ومتطورة ومتجدده بأسلوب تربوي فكري معاصر لجميع طلاب المراحل التعليمية المختلفة توضح لهم معالم البناء الفكري الإسلامي، وأسباب الانحراف الفكري ومظاهره، وسُبل مواجهته وعلاجه والوقاية من آثاره الخطيرة المدمرة.

هذا والحمد لله رب العالمين أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، وله الحمد في الأُولى والآخرة، وله الفضل والنعمة والثناء الحسن الجميل، على عظيم توفيقه وجليل امتنانِه وكريم إنعامه.

فهرس بأهم المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**.
- **أبجد العلوم والوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم**، المؤلف: صديق بن حسن القنوجي (ت: ١٣٠٧هـ)، تحقيق: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية – بيروت/ ١٩٧٨م.
- **الإسلام على مفترق الطرق**. تأليف: محمد أسد (ليوبولد فايس النمساوي). ترجمة: عمر فروخ. دار العلم للملايين، ١٩٨٧م.
- **أصول السنة**، للإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، دار المنار – الخرج – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.
- **الاعتصام**، للإمام إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.
- **الإعجاز العلمي في السنة النبوية**، د/ صالح بن أحمد رضا. مكتبة العبيكان – الرياض. ط١، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.
- **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- **الأمن الفكري في ضوء السُّنة النبوية**، د. عبد الرحمن بن معلا اللويحق، جائزة نايف بن عبد العزيز العالمية للسنة النبوية، الدورة السادسة، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م.
- **بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار**، المؤلف: أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الكريم بن رسمي ال الدريني، دار النشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.
- **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، المؤلف: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري (المتوفى: ١٣٥٣هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.
- **تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين**، لمحمد بن علي الشوكاني، دار القلم – بيروت ١٩٨٤م.

- **تخريج أحاديث إحياء علوم الدين**، للعِراقي (٧٢٥ - ٨٠٦ هـ)، وابن السبكى (٧٢٧ - ٧٧١ هـ)، والزبيدي (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ)، استِخرَاج: أبي عبد اللَّه مَحمُود بِن مُحَمّد الحَدّاد (١٣٧٤ هـ -؟)، الناشر: دار العاصمة للنشر – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.
- **تفسير الطبري= جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، للإمام محمد بن جرير أبي جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
- **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، المؤلف: أ.د/ محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى، تاريخ النشر: من عام ١٩٩٧م حتى ١٩٩٨م.
- **تقريب التهذيب**، للحافظ أبي الفضل أحمد بن علي بن أحمد بن حجر العسقلاني، المتوفى سنة ٨٥٢ هـ، تحقيق: محمد عوامة، طبعة: دار الرشد ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.
- **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب، عام النشر: ١٣٨٧هـ.
- **توجيهات نبوية على الطريق**، د. السيد محمد نوح، دار اليقين – المنصورة – مصر، الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).
- **جامع بيان العلم وفضله**، الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، لابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن وآخرين، دار العاصمة - السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- **حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي**، للشيخ/ محمد الغزالي، طبعة مكتبة نهضة مصر – القاهرة، الطبعة الثالثة ٢٠٠٥م.
- **سنن ابن ماجة**: للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه، المتوفى سنة ٢٧٣ هـ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

- **سنن أبي داود**، للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.
- **سنن الترمذي** (الجامع الصحيح)، للإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، المتوفى سنة٢٧٩هـ تحقيق: د. بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي — بيروت، سنة النشر: ١٩٩٨ م.
- **سنن النسائي «المجتبى»**، للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، المتوفى سنة ٣٠٣ هـ، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، الناشر: دار المعرفة ببيروت، الطبعة: الخامسة ١٤٢٠هـ.
- **السنن الكبرى**، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، المتوفى سنة ٤٥٨ هـ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، طبعة: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند بحيدر آباد، الأولى ١٣٤٤هـ.
- **السنن الكبرى**، للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، المتوفى سنة ٣٠٣ هـ، تحقيق: حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، الناشر: مؤسسة الرسالة — بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- **شرح مشكل الآثار**، المؤلف: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ، ١٤٩٤ م.
- **صحيح ابن حبان** «الإحسان»، للإمام أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي، المتوفى سنة ٣٥٤ هـ. بترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، المتوفى سنة ٧٣٩ هـ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، طبعة: مؤسسة الرسالة — الثانية ١٤١٤هـ.
- **صحيح ابن خزيمة**: مختصر المختصر من المسند الصحيح، المؤلف: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السُّلمي، المتوفى: ٣١١ هـ، المحقق: الدكتور ماهر الفحل، الناشر: دار الميمان — الرياض، الطبعة: الأولى ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م.
- **صحيح البخاري** (الجامع الصحيح)، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل ابن إبراهيم بن المغيرة البخاري، المتوفى سنة ٢٥٦ هـ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **صحيح مسلم**، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القُشَيْري النيسابوري، المتوفى سنة ٢٦١ هـ. تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار إحياء الكتب العربية.

- **الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة**، لشمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.
- **الضوابط العقدية ودورها في معالجة الفُرقة الفكرية للمسلمين**، رسالة ماجستير مقدمة: إلى مجلس كلية أصول الدين -الجامعة الإسلامية- بغداد- العراق - قسم العقيدة الإسلامية — للباحث/ نور شاكر الكبيسي، عام ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، للإمام الحافظ أبي الفضل أحمد بن علي بن أحمد بن حجر العسقلاني، المتوفى سنة ٨٥٢ هـ، طبعة: دار المعرفة — بيروت ١٣٧٩هـ.
- **القواعد الفقهية المنظومة وشرحها**، للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، إصدار المراقبة الثقافية، إدارة مساجد محافظة الجهراء — السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، للإمام نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، المتوفى سنة ٨٠٧ هـ، بتحرير الحافظين الجليلين: العراقي وابن حجر، طبعة: دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م.
- **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، المؤلف: علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ)، الناشر: دار الفكر، بيروت — لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- **المستدرك على الصحيحين**، للإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المتوفى سنة ٤٠٥هـ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، طبعة: دار الكتب العلمية — بيروت، الأولى، ١٤١١هـ ١٩٩٠م.
- **مسند البزار «البحر الزخار»**، للإمام بكر أحمد بن عمرو ابن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار، المتوفى سنة ٢٩٢ هـ، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وجماعة - طبعة مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة — الأولى ٢٠٠٩ م.
- **مسند الدارمي**، الإمام عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع - الرياض — السعودية، الطبعة: الأولى ١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م.
- **المسند**: للإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، المتوفى سنة ٢٤١ هـ. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وجماعة، طبعة: مؤسسة الرسالة، الثانية ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م. وجمعية المكنز الإسلامي- دار المنهاج، الطبعة: الأولى ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

- **المصنف لابن أبي شيبة**، الإمام أبو بكر بن أبي شيبة، الناشر: دار القبلة - جدة - السعودية، مؤسسة علوم القرآن - دمشق — سوريا، الطبعة: الأولى: ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م.
- **معجم مصطلحات العلوم الشرعية**، مجموعة من المؤلفين، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، الرياض ١٤٣٩هـ - ٢٠١٧م.
- **معجم مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م.
- **المعجم الكبير**، للإمام أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، المتوفى سنة ٣٦٠ هـ، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، طبعة: مكتبة العلوم والحكم . الموصل ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م.
- **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، محمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية — بيروت.
- **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم**، المؤلف: الإمام أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، (ت: ٦٥٦هـ)، تحقيق: محيي الدين مستو وآخرين، الناشر: دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق — بيروت، ط١ سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي — بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.
- **النهاية في غريب الحديث والأثر**، المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي.
- **هذه شريعتنا**، د. شهاب الدين محمد أبو زهو، دار الهدى، الإسكندرية، مصر، ١٤٣٢هـ - ٢٠١٠م.